سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ

مِنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

وَمَكَانَتُهَا مِنْ سَيِّدِ الْأَصْفِيَاءِ

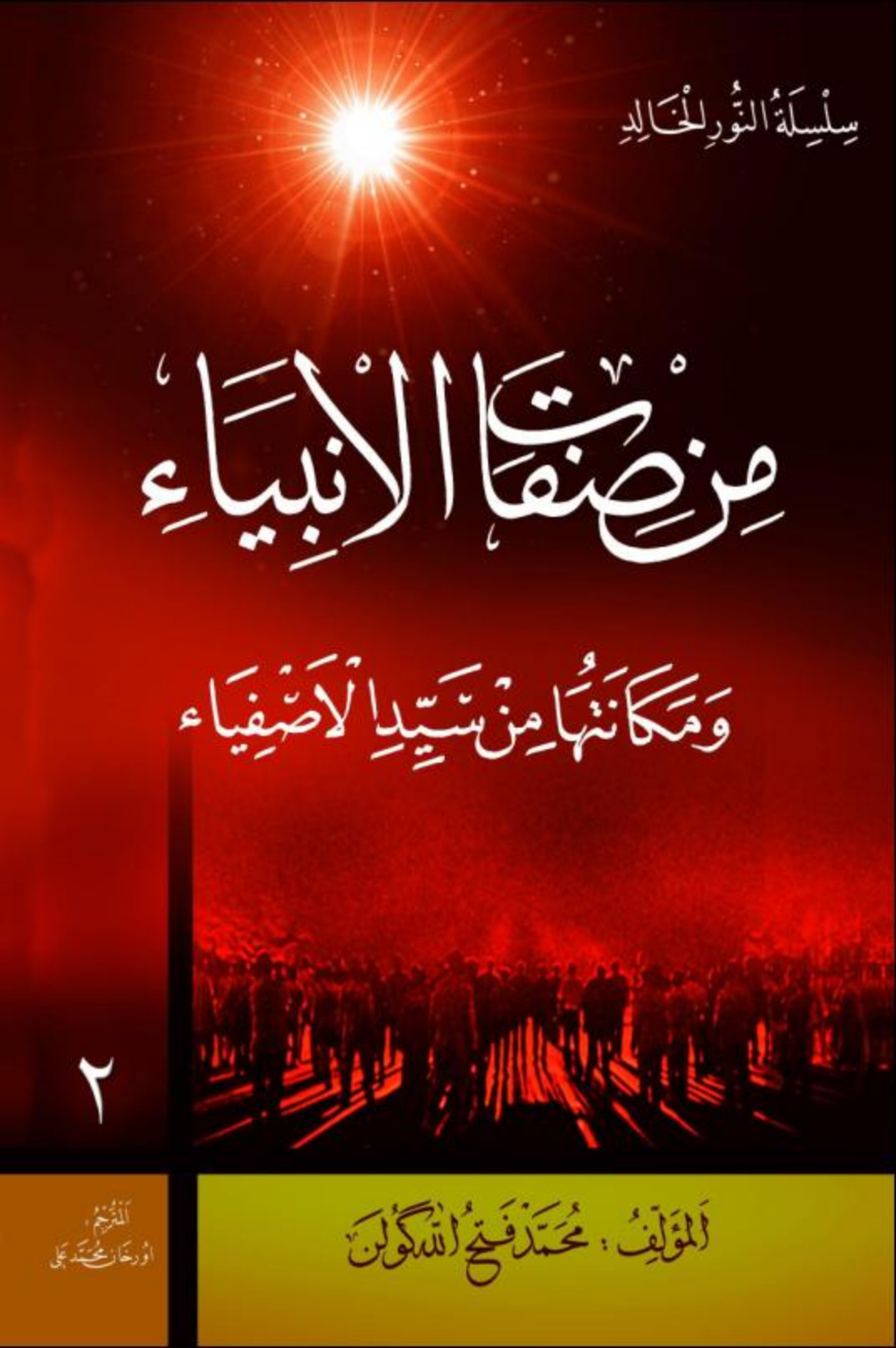

٢

الْمُؤَلِّفُ : مُحَمَّدْ فَتْحُ اللهِ گُولَنْ

اَلْمُتَرْجِمُ
أُورْخَانْ مُحَمَّدْ عَلِي

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٢

ترجمة كتاب (Sonsuz Nur) عن التركية

محفوظة جميع الحقوق

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 975-315-174-8

الهاتف: (٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١+) فاكس: (٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢+) استانبول / تركيا

مركز التوزيع/فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

موقع الأستاذ م فتح الله كولن على الإنترنت:

www.ar.fgulen.com

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٢

مِنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

وَمَكَانَتُهَا مِنْ سَيِّدِ الْأَصْفِيَاءِ

الْمُؤَلِّفُ : مُحَمَّدْ فَتْحُ اللهِ گُولَنْ

الْمُتَرْجِمُ : اُورَخَانْ مُحَمَّدْ عَلِي

الباب الثالث:
صفات الأنبياء ومكانتها
من سيد الأصفياء

الفصل الأول: الصدق

الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها؛ فكل ما تلفّظه الأنبياء صدقٌ خالص، ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة. وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياء يشير إلى هذه الصفة عندهم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾ (مريم: ٤١). أي اذكر في القرآن الذي هو مستنسخ اللوح المحفوظ ومبين حقيقته الثابتة أو في اللوح المحفوظ بأن إبراهيم كان نبياً صفته الصدق التامّ في القول والسلوك.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾ (مريم: ٥٤). ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ (مريم: ٥٦-٥٧).

ويوسف عليه السلام... نرى رفقاءه في السجن يخاطبونه فيقولون: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف: ٤٦).

وكيف لا يكونون مجهَّزين بالصدق والله تعالى يخاطب عامة المؤمنين ويطلب منهم أن يكونوا صادقين:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

(التوبة: ١١٩). كما يبين أن المؤمنين المجاهدين في سبيل الله هم الصادقون فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

والقرآن يثني على الصادقين: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣).

ولنستروح في ظلال أفنان هذه الآية قليلا ثم نتابع المسير:

كان أنس بن مالك خادما للرسول ﷺ وذلك حينما أخذت أمه بيده وهو إذ ذاك في العاشرة من عمره إلى رسول الله ليخدمه قائلة: "يا رسول الله! خادمك أنس." وتركت ابنها وذهبت.[١] يقول أنس بن مالك: "إن هذه الآية نزلت في عمي أنس بن النضر وأمثاله."

عندما رأى أنس بن النضر رسول الله في بيعة العَقَبة أحبّه وتعلّق به. ولكنه لم يستطع لأسباب عدّةٍ الاشتراكَ في معركة بدر. ولمعركة بدر مكانة خاصة ومتميزة، حتى الذين اشتركوا فيها لهم مكانة خاصة بين أصحاب رسول الله ﷺ. بل إن من اشترك فيها من الملائكة لهم مكانة خاصة بين سائر الملائكة كما حدث بهذا جبريل عليه السلام الذي كان على رأس الملائكة يوم بدر.[٢]

قال أنس رضي الله عنه عمي الذي سُمّيتُ به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً، فشَقّ عليه. قال: أوّلُ مشهَدٍ شهده رسول الله ﷺ غُيّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهداً

---

(١) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٤١

(٢) **البخاري**، المغازي، ١١؛ **ابن ماجه**، المقدمة، ١١

فيما بعدُ مع رسول الله ﷺ لَيراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرَهـــا. قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد. قال: فاستقبل سعد بن معاذ. فقال له أنس: واهاً لريح الجنة أَجِده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قتل.[1]

وعندما تتداعى ذكريات معركة أُحد لا نستطيع أن ندفع الإحساس بهـــذه الغصة التي تنشب في حلوقنا... فهي المعركة التي استشهد فيها سبعون صحابيّاً. ومن يدري فقد يكون هذا هو السبب الذي قال من أجله النبي ﷺ وهو يمر من أمام جبل أُحد: «أُحد جبل يحبنا ونحبه.»[2] لكي لا نَحمِل أي ضغينة تجاهه.

أُحد جبل صعب المرتقى... ولكن معركة أُحد كانت أصعب... فقد ترك بعض الصحابة مواضعهم المستحكمة التي عيّنها لهم النبي ﷺ مدة وجيـــزة... كان هذا مجرد تغيير استراتيجي، لذا لا يمكن إطلاق كلمة "الهزيمة" عليـــه... فتوقيرنا للصحابة وزاوية نظرتنا إليهم تستلزم هذا.

في هذه المعركة جُرح رسول الله ﷺ وانكسرت سنه، ودخلت حلقتا المِغفر في وجهه الشريف فأدماه، ومع ذلك فلأنه رسول الله ﷺ ولأنه أرسل رحمة للعـــالمين فإنه فتح ذراعيه مبتهلا إلى الله تعالى «اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.»[3]

وفي هذه المعركة كان أنس بن النضر يصول ويجول هنا وهناك يحـــاول أن يبر بوعده الذي قطعه للرسول ﷺ قبل عام. ولكن سرعان ما امـــتلأ جـــسده بضربات السيوف وطعنات الرماح فهوى إلى الأرض مضرجاً بدمائه... كـــان

---

(١) **مسلم**، الإمارة، ١٤٨

(٢) **البخاري**، الزكاة، ٥٤؛ **مسلم**، الحج، ٥٠٣، الفضائل، ١١

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٥٤؛ **مسلم**، الجهاد، ١٠١، ١٠٥

قد اقترب من النهاية، وعندما مرّ به سعد بن معاذ قال له وهو يبتسم بـــوهن: "واهاً لريح الجنة أجده دون أُحد."

في هذه المعركة صعب التعرف على كثير من الشهداء مثل حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش، وأنس بن النضر الذي ما تعرفت عليه أخته إلا من بنانه، فلعلها المكان الوحيد الـــذي لـــم تصبه الجـــروح.

والآن لنسمع بقية رواية أنس بن مالك ﷺ، فقاتلهم حتى قتـــل. فوُجـــد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية. قال: فقالت أخته عمتي الرُّبَيِّـــع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه. ونـــزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنتَظِرُ وَمَـــا بَـــدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣). فكانوا يرون أنها نـــزلت فيه وفي أصحابه.(١)

كانت هذه الآية تشرح هذه الشهامة... لقد بَرّ بوعده الذي قطعه على نفسه من أنه سيقاتل حتى الموت... وقُتل، و لم يستطع الموتُ دفعَه لنكث وعده.

نعم لقد صدق ما عاهد الله عليه. والآية الكريمة عندما تثني على مثل هؤلاء الشهداء تريد أن تقدمهم لنا كقدوة حسنة يجب أن يحتذي بها كل من شهد أنه "لا إله إلا الله" لكي لا يضيع الدين ولا ينتكس الإيمان ولا تُمتهن شرائع الله.

لقد صدق أنس بن النضر وعده، وصدق الآخرون -من أشـــباه أنـــس- وعودهم، ذلك لأنهم تربوا في مدرسة الحبيب محمد ﷺ. فمثلما كان الحبيـــب صادقاً أميناً كان أصحابه وتلامذته صادقين أمناء.

---

(١) **مسلم**، الإمارة، ١٤٨

الصدق عند رسولنا ﷺ

أ- الأمين قبل الرسالة

ما كان أهل مكة يخاطبونه باسمه، بل كانوا يخاطبونه بصفته "الأمين..." أجل، فقد كان مشتهراً بهذا اللقب. وما أسعدنا ونحن نكرر صباحاً ومساء هذا الوِرْد: "لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله صادق الوعد الأمين."

لما قام أهل مكة بتعمير بيت الله وإصلاحه بعد أن تشقق بفعل السيول، برزت هنالك مشكلة كبيرة في موضوع إعادة الحجر الأسود -نحن ندعوه "الحجر الأسعد"- إلى موضعه السابق. إذ امتَشقت القبائل سيوفها، تبغي كل قبيلة أن يكون لها هذا الفخر وكادت تقوم بينهم فتنة عظيمة. ولكن أخمد أوارها اتفاقهم على أن يجعلوا أول من يدخل الكعبة حَكَماً بينهم. وتعلقت الأنظار بمدخل البيت ترتقب من يدخله، وما إن أطلّ محمد ﷺ بوجهه المنير عليهم حتى صاحوا جذلين: "هذا الأمين... رضينا... هذا محمد!"[1] ولم يكن رسول الله يعرف شيئاً أثناء دخوله إلى البيت الحرام.

ذلك لأن ثقتهم به كانت تامة. ومع أنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيا، إلا أنه كان محطَّ ثقة الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضل ما شهدت به الأعداء. فها هو أبو سفيان ألد أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه. ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال:

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٠٩/١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٢٥/٣

إن هرقل أرسل إليه في رَكْب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها[1] أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه وهم بإيلِياء[2] فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذّبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِن ملِك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعَفاف والصلة.[3]

---

(١) **مادّ فيها**: صالحهم على ترك القتال. (المترجم)

(٢) **إيلياء**: بيت المقدس. (المترجم)

(٣) **الصلة**: الإحسان إلى الأقارب. (المترجم)

فقال للترجمان: قل له: سألتُك عن نسبه فذكرتَ أنه فـيكم ذو نـسب. فكذلك الرسل تُبعَث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقـولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب مُلك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونـه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَـذَر الكذب على الناس ويكذب على الله... الخ"[1]

والنص طويل ونقتصر على هذا القدر. وأهم ما يلفت النظر هنـا وجـود دليلين على صدق رسول الله ﷺ؛ أولهما هو هرقل إمبراطور الروم الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني هو جواب أبي سفيان الذي كان يعترف بصدق رسـول الله ويقبله مع أنه لم يكن قد أسلم بعد. ولكن هرقل أضاع فرصة ذهبية جاءت إليه، إذ أن حبه لملكه أضاع عليه الحصول على الملك الحقيقي الخالد فلم يسلم ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة. ولكن على الرغم من هذا فقـد تـصرّف باحترام أمام الرسالة التي بعثها إليه الرسول ﷺ، إذ تصرف ببـصيرة، وكـان اعترافه بصدق النبي ﷺ مدعاة لسرورنا.

والحقيقة أن ما قاله هرقل له معان ودلالات عميقة... أجل، فإن شخصاً لم ينطق بكذبة واحدة للناس العاديين -وإن كانت مزحة- حـتى بلوغـه سـن الأربعين أيمكن أن يكذب على الله وقد اقترب من الكهولة، ومن الموت؟

سأل ياسر قبل إسلامه ابنه عمّاراً إلى أين تذهب؟ فأجابه: "إلى محمد ﷺ"

---

(١) انظر: **البخاري**، بدء الوحي، ٣، ٦؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٤

كان هذا الجواب كافياً له: "إنه الأمين... هكذا يعرفه أهـــل مكـــة... إن كان قال إنه نبي فهو نبي، ذلك لأنه ما من أحد جرّب عليه الكذب." لم يكن هذا قول فرد واحد ولا اعتقاد شخص واحد أو بضعة أشخاص، بل اعتقـــاد كل من عرفه قبل بعثته وقبل نبوته.

ب- الموصي بالصدق دائماً

وكما عاش صادقاً فقد أوصى أمته بالصدق على الدوام، وندرج هنا بعض هذه الوصايا تبركاً بها: «اِضْمَنُوا لي ستّاً من أنفسكم أَضمن لكم الجنة: اُصدقوا إذا حَدَّثتم، وأوْفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا اؤتُمِنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضّوا أبصاركم، وكُفّوا أيديكم.»[1]

لقد عاش النبي ﷺ مستقيماً مثل شعاع ضوء، وأوصى بالاستقامة بعـــد أن حققها في نفسه إلى ذروة ما بين الإمكان والوجوب، إلى ذروة ليس وراء هـــا سوى الصدق الإلهي، أي إن رسول الله ﷺ كان يجول في عالم الصدق في أفق ﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩). فمن ناحية كان في دائرة "الإمكان" ومن ناحية أخرى كان قد تجاوز دائرة "الإمكان" وكما قال القاضي عياض في معرض المعراج "إنه وصل إلى موضع لم يدْرِ فيه أين يضع قدمه، فقيل لـــه أن يضع إحدى قدميه فوق الأخرى." صحيح أنه كان بشراً من جميع النـــواحي، ولكن الصدق رفعه إلى مثل هذا المستوى. وهو يوصينا بالوصية نفسها "اِضْمَنُوا لي الصدق وعدم الكذب في حياتكم أضمن لكم الجنة."

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢٣/٥

ويقول في حديث آخر: «دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة.»[1] ويقول أيضاً: «وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة.»[2] أي اصدقوا وإن رأيتم أن الصدق سيجرّ عليكم الهلاك، لأنه سيؤدي بكم إلى النجاة في الحقيقة. ويقول أيضاً: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدُق ويَتحرّى الصدقَ حتى يُكتب عند الله صدّيقاً. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذِب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابا.»[3]

النجاة والخلاص في الصدق. فالإنسان عندما يموت بصدقه يموت مرة واحدة بينما يموت مرات بعدد كذبه. يقول كعب بن مالك ﷺ: "لقد نجوت بصدقي." وعندما نتكلم عن الصدق فلا يمكن ألاّ نذكره ﷺ.

كان كعب بن مالك ﷺ ذا لسان صادق وسيف قاطع.. كان شاعراً استطاع بشعره أن يُلقم الكفار حجراً في العَقَبة، لذا كان من أوائل الأنصار. ولكنه لم يشترك في غزوة تبوك التي كانت غزوة صعبة، تناوش فيها حفنة من المؤمنين مع الإمبراطورية البيزنطية في لهيب الصحراء اللافح... ذهبوا بهذه النية... وأبدوا تلك البسالة... كسبوا الثواب و لم يبق من الحرب سوى ذكرياتها.

قال كعب بن مالك ﷺ في رواية أخرجها أحمد والبخاري ومسلم عن طريق الزهري:

---

(١) **الترمذي**، القيامة، ٦٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٠٠/١

(٢) «**فيض القدير**» للمناوي ٢٣٢/٣؛ «**كنز العمال**» للهندي ٣٤٤/٣

(٣) **البخاري**، الأدب، ٦٩؛ **مسلم**، البر، ١٠٥؛ **أبو داود**، الأدب، ٨٠

"لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، و لم يعاتب أحدا تَخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العَقَبَة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها. كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، واللهِ ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، و لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلا ظن أن سيَخفَى له، ما لم يَنزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجعُ و لم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدّ بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه و لم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت و لم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت و لم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتَفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأُدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عَذَرَ اللهُ من الضعفاء. و لم يذْكرني رسول الله ﷺ حتى

بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه ونظرُه في عِطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني هَمّي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووَكَلَ سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المُغْضَب، ثم قال: «تعال.» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلا ولكني والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كَذِب ترضى به عني لَيوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتُك حديث صِدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.» فقمت، وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علِمناك كنتَ أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلِّفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنِّبوني حتى أردت

أن أرجع فأُكذّب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحـــد؟ قـــالوا: نعـــم، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْريّ وهلال بن أمية الواقفيّ فذكروا لي رجلين صالحين قد شـــهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ من بين مَن تخلّف عنه، فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تَنكّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلـــك خمـــسين ليلـــة، فأمـــا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنـــا فكنـــت أشـــبّ القـــوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأســـواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بِرَدّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه فأســـارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عـــني، حـــتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرتُ جدار حـــائط أبي قتـــادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله مـــا ردّ علـــيّ الـــسلام، فقلت: يا أبا قتادة، أَنشدك بالله هل تعلمني أُحِب الله ورسوله؟ فسكَتَ، فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفـــق النـــاس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غَسّان، فإذا فيه: أما بعـــد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، و لم يجعلك الله بدار هَـــوان ولا مَـــضْيَعَة فالْحَقْ بنا نُواسِكَ فقلت لّما قرأتها وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بهـــا التَّنُّـــور

فسجَرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقرَبها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقرَبْكِ.» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفَى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشِرْ، قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرَج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبل صاحبيّ مبشّرون وركض إلي رجلٌ فَرَساً، وسعى ساعٍ مِن أَسْلَمَ فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنُّوني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال

كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناسُ، فقام إليّ طلحة بن عُبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك» قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليك بعض مالك فهو خير لك.» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجّاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٧-١١٩). فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذَبتُه فأَهلك كما هلك الذين كذَبوا فإن الله قال للذين كذَبوا حين أنزل الوحي شر

ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩٥-٩٦). قال كعب: وكنا تُخُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ (التوبة: ١١٨). وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه.(١)

أجل، إن حقيقة النبوة قائمة على أساس من الصدق والاستقامة. فكل نبي صادق، ويجب أن يكون صادقاً، ذلك لأنه الشخص الذي يبلّغ الأوامر الآتية إليه من عالم الغيب إلى الناس. فلو كان هناك احتمال لأيّ خطأ مهما كان قليلاً في مهمة التبليغ، لانقلبت الأمور رأساً على عقب، لأن جميع الحقائق التي نتعلمها حول الحقيقة الإنسانية تنتقل إلينا عن طريقهم، وهذا موضوع حساس جداً لا يتحمل مثقال ذرة من الخطأ أو الوهم، لذا نرى الله تعالى يقول في هذا الأمر: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٢)۞ فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقّة: ٤٤-٤٧).

لقد كان ﷺ في موضوع أوامر الله ونواهيه مثل الميت في يد المغسل يستطيع أن يقلبه يمينا أو يساراً كيفما شاء. فوِجهته دائما هي الوجهة التي يوجهه إليها

---

(١) **مسلم**، التوبة، ٥٣؛ **البخاري**، المغازي، ٧٩

(٢) **الوتين**: هو نياط القلب. (المترجم)

الله تعالى حتى بعد وصوله إلى ذروة القرب من الله تعالى. وما كان له أن يفقد شيئاً ولو هينا من حساسيته في هذا... بل لقد تعمقت فيه هذه الحساسية ونزلت إلى أعماق قلبه.

لقد كان عند وعده دائما فلم يسمع عنه أحد حتى بلوغه سن الأربعين كذبة ولا جرّب عليه خلف وعد. يروي عبد الله بن أبي الحَمْساء قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية فوعدتُه أن آتيه بها في مكانه فنسيتُ. ثم ذكرت بعد ثلاث. فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «يا فتى! لقد شققتَ عليّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك.»[1]

ج- أقواله علامة صدقه

لقد كان منذ مولده الصادقَ الأمين المختار، لذا أسرع الناس إلى الإيمان بكل ما قاله بعد نبوته، فكأن العالم كله يهتف به: "لقد صدقت يا رسول الله..." لا البشر فحسب، بل كل كائن يقول بلسان حاله وبلسان المعجزة هذا القول له ويبايعه.

ولأقف هنا لحظة لأستطرد ولأوضح موضوعاً مهمّاً فأقول: إن الآيات القرآنية وأقوال نبينا ﷺ النورانية لهما مقام رفيع جدّاً لا يستطيع الفلاسفة بعقولهم ولا الأولياء بقلوبهم ولا الأصفياء بأرواحهم أن يفهموها حق الفهم ولا أن يبلغوا ذلك المستوى أو يسموا إليه. فالوصول متعذر بل مستحيل؛ وذلك من ناحية الدقة في التعبير عن العلاقات الموجودة بين ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى.

---

(١) **أبو داود**، الأدب، ٨٢

غير أن الأرواح السامية والواصلة رأت من تجارها أنها كلما غذت السير نحو الأعالي كلما تبيّن لها مدى صدق بيان القرآن وبيان الرسول ﷺ ومدى مطابقتهما للحق وللحقيقة، ويصلون إلى هذا عن طريق الكشف والذوق.

أجل، فما قاله الرسول ﷺ حول الألوهية يتم التصديق عليه من قِبَل أهل الاختصاص ويُتّخذ أساساً وقاعدة، حتى أنه تناول مواضيع حساسة جدّاً حول مسائل الألوهية والحشر والنشر والقدر مع احتفاظه بالتوازن الدقيق بين هذه المواضيع بحيث إنه لو لم يعلن عن هذه المسائل ويشرحها لما استطاع أحد أن يقول كلمة واحدة حولها.

يروى عن عمرو بن أخطب رضي الله عنه أنه قال: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت العصر. ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأَخبَرَنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا."[1]

أجل، فقد فَتح أبواب الماضي واستعرض أقوال الأنبياء منذ آدم عليه السلام، وشرح أوصافهم وشمائلهم؛ ثم حوّل بصرَه إلى المستقبل فشرح كل شيء حول المحشر والجنة والجحيم، وهو الذي لم يقرأ كتاباً ولم يدرس على أحد؛ فكيف تسنّى له معرفة كل هذا..؟ لا شك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي علّمه ما لم يكن يعلمه من قبلُ من شؤون الدنيا وشؤون الآخرة. وما كان هناك غير هذا السبيل لِمعرفة كل هذه الأمور، وهذا هو ما يَقبله ويصدّق به كل العقلاء حاليّاً. وهو دليل آخر على صدق رسول الله ﷺ.

---

(١) **مسلم**، الفتن، ٢٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٣٤١

كان رسول الله ﷺ يتكلم عن الأنبياء ويصفهم ويصف ملامح وجـــوههم حتى كأنه رسام يرسم اللوحات. وكان أهل الكتاب في زمانه يصدقون كلامه ووصفه ولا يعترضون عليه ويقولون: "أجل، هذه هي أوصافهم كما جاءت في كتبنا."[1] أوليس هذا دليلاً قاطعاً على صدق نبوة رجل يصف جميع الأنبيـــاء والرسل السابقين وصفاً دقيقاً يوافق عليه أهل العلم آنذاك وأهل الاختـــصاص دون أن يقرأ كتاباً واحداً من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما؟

إن هذا الموضوع الذي قدّمنا لمحة منه موضوع لا أستطيع إيفاءه حقه، فهو خارج طاقتي وقدرتي... والحال نفسها واردة مع القرّاء، إذ ليس من الـــسهل فهم هذا الموضوع وشرحه بالشكل المطلوب، غير أننـــا اســـتناداً إلى أقـــوال وشهادة مَن بلَغوا هذا المستوى من آلاف الأولياء والأصفياء الـــذين ســـلكوا طريق الولاية وصعدوا مراتب الولاية مرتبة مرتبة؛ والعلماء والفلاسفة الـــذين ملأوا رؤوسهم بالعلم وبالمعرفة نعلم أن أقوال رسول الله ﷺ كانت في الذروة في كل أمر من الأمور، وهذا يشكل بعداً آخر حول صدقه واستقامته. فتصديق هؤلاء الأشخاص الممتازين والمتميزين يُرينا أنه ﷺ لم يتحدث أبـــداً خـــلاف الحقيقة وخلاف الحق، ذلك لأن ما تَحدّث فيه لم يكن من عنده بل من الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[2] وهذا هو السبب في أنه أصبح سلطان الكلام الحق على مر العصور.

وما نريد أن نقف عليه هنا هو بعض أقواله المتعلقة بالغيب والـــتي ظهـــر

---

(١) **مسلم**، الإيمان، ٢٧١

(٢) انظر الآية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٣-٤).

صدقها بعد مرور أربعة عشر قرناً، وهذا دليل آخر على صدقه وصدق نبوته. غير أننا نود قبل الدخول إلى هذا الموضوع إيضاح بعض المسائل حول معاني الغيب لإيقاننا بضرورة هذه الشروح وبفائدتها.

جاءت كلمة "الغيب" في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبمعان مختلفة. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩). فالغيب هنا غيب موجود في مقام الألوهية لا يعلمه أحد سواه ﷻ... غيب لا يعلمه حتى رسوله محمد ﷺ.

ثم ألا يذكر الله ﷻ لنبيه بأن عليه أن يقول: ﴿قُل لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وفي سورة الجن نرى الآية: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (الجن: ٢٦-٢٨).

في ضوء هذه الآيات نستطيع أن نقدم التحليل الآتي: إن من يقول إن رسول الله ﷺ كان يعلم الغيب علماً مطلقاً يميل إلى الإفراط والمبالغة. ومن يقول إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الغيب مطلقاً يميل إلى التفريط. فهو لم يكن يعرف الغيب، إلا أن الله تعالى كان يطلعه على الغيب. فكان رسول الله

ﷺ يشرح الأمور الأساسية للحوادث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تليفزيونية. وهذا هو ما نريد الوقوف عنده بكل عناية. فما قاله لم يكن من عنده بل مما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي. وبما أن الله تعالى هو مصدر هذا الغيب، لذا لم يكن الرسل وحدهم ولا رسولنا ﷺ فقط من يعلم الغيب عن هذا الطريق، بل كان بعض الواصلين من الأولياء مطّلعين على قسم من الغيب عن طريق الكرامة إذ يقول الرسول ﷺ: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» قال ابن وهب: تفسير "محدَّثون" مُلْهَمون.(١) لذا، نرى أن عمر بن الخطاب ﷺ يقطع خطبته ويهتف: "يا سارية! الجبل.. الجبل.. الجبل!" يحذّر جيشَ المسلمين من الكمين المعدّ له من الأعداء. ويسمع قائد المسلمين نداء عمر فينجو بجيشه من كمين الأعداء.(٢)

وهناك أولياء مثل محيي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي والإمام الرباني ومشتاق أفندي ومئات غيرهم أخبروا عن الغيب ثم صدّقت الأيام كلامهم. وكلهم كانت قلوبهم مرتبطة برسولهم محمد ﷺ، مستمدين إلهاماتهم من مشكاة نوره. فإذا كان هذا هو حال بعض طلابه ودرجة قربهم من النسائم الرحمانية واللطف والإلهام الإلهي، والاطّلاع على الغيب فكيف برسول الله ﷺ وهو الذي لو وُضع في كفة ووُضعت أمته في كفة لرجَحَها؟ وكيف يُستبعد اطّلاعه على الغيب كجزء من معجزاته؟(٣)

---

(١) **البخاري**، الأنبياء، ٥٤؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٣؛ **الترمذي**، المناقب، ١٧

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ٥٧١/١٢

(٣) انظر: **أبو داود**، السنة، ٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٧٦/٢

هناك ما يقارب ثلاثمائة معجزة نبوية مذكورة في كتب الأحاديث المعتمدة، وقد تحقق القسم الأعظم من الأخبار الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ. ولسنا هنا في معرض استعراض هذه الأخبار، بل سنتناول أمثلة منها لكي تعطينا فكرة عن الموضوع.

وسنقسم هذه الأمثلة إلى مجموعات ثلاث:

الأولى: الأخبار الغيبية المتعلقة بعهده ﷺ.

الثانية: الأخبار المتعلقة بالمستقبل القريب أو البعيد.

الثالثة: الحقائق التي أوضحها ببيانه السهل الممتنع والتي لم يعرف معناها إلا بعد تقدم العلوم.

أولاً: أخبار الغيب المتعلقة بزمانه

١. تورد كتب الأحاديث وفي مقدمتها صحيح البخاري ومسلم الرواية التالية:

عن أنس ﷺ قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيّنتُ لكم» فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟ فقال: «أبوك حُذافة» ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوّرت لي الجنة والنار، حتى رأيتهما دون الحائط.»[1]

(١) **البخاري**، الدعوات، ٣٥، الفتن، ١٥؛ **مسلم**، الفضائل، ١٣٤

٢. يورد مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي عن أنس ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ.[١]

أجل، فهؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ في حياتهم كانت أجسادهم الآن وجثثهم تنطق بشهادة صدقه عليه الصلاة والسلام... ذلك لأنه كان يخبر، ثم يتحقق ذلك الخبر بحذافيره.

٣. ينقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده الحادثة التالية:

قال جرير: لمّا دنوتُ من المدينة أنختُ راحلتي ثم حلَلْتُ عيبتي ثم لبست حُلّتي ثم دخلت، فإذا رسول الله يخطب فرماني الناس بالحَدَق فقلت لجليسي: يا عبد الله، ذَكَرني رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم ذكرك آنفاً بأحسن ذكر، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفَجّ من خير ذي يمن، ألا وإن على وجهه مسحة ملَك.»[٢]

٤. ينقل ابن كثير في "البداية والنهاية" والبيهقي في "دلائل النبوة" الحادثة التالية:

رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره فقال: «إذن، يُخزيك الله» فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوّهتُ به.

---

(١) **مسلم**، الجنة، ٧٦، ٧٧؛ **النسائي**، الجنائز، ١١٧

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٣٦٠-٣٦٤

وفي رواية: إن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جَمْعاً ؟ فإنه لَيحدّث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذن، يُخزيك الله» قال فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبيّ حتى الساعة.(١)

٥. وهناك حادثة أخرى جاءت حول عُمَيْر بن وهْب الذي كان لقبه "الشيطان" في الجاهلية فأصبح لقبه "راهب الإسلام" بعد هدايته. وخلاصة هذه الحادثة أنه جلس يوماً في مكة مع صفوان بن أمية واتفقا على أن يذهب عمير بن وهب إلى المدينة ويتظاهر بأنه أسلم ويقتل رسول الله ﷺ وذلك مقابل أن يعطيه صفوان عدداً من الإبل.

حدّ عمير سيفه وتوجه إلى المدينة وعندما وصلها قال بأنه قد أسلم ويريد مبايعة رسول الله. فذهبوا به إلى مسجد رسول الله ﷺ. ولكن الصحابة لم يكونوا يأمنون جانبه ولا يأمنون اختلاءه بالنبي ﷺ فذهبوا به إلى المسجد وأحاطوا بالنبي ﷺ الذي سأل عميراً عما جاء به وعندما أجابه بأنه جاء ليسلم لم يصدّقه الرسول ﷺ وقال له: «أنا أخبرك لم جئت.» وأخبره ما كان من أمره مع صفوان في مكة واتفاقه معه على قتله ﷺ. فذهل عمير مما سمع وأكبّ على يدي رسول الله ﷺ يعلن إسلامه ويشهد أنه رسول لله.(٢) ثم أصبح من أصحاب العبادات ومجاهدة النفس حتى أطلق عليه اسم "راهب الإسلام".

فمن الذي أخبر رسول لله ﷺ بما جرى بين عمير وصفوان في مكة؟

---

(١) «**دلائل النبوة**» للبيهقي ٥/١٠٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٤٨

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٣/٣٦؛ «**رجال حول الرسول**» لخالد محمد خالد ص٣٠٤-٣١٢

ثانياً: الأخبار المتعلقة بالمستقبل

أ – المستقبل القريب

يروي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة:

كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: «اللّهم ارحمهما فإني أرحمهما.»[1] وبعد أن أصبح شابّاً عيّنه رسول الله ﷺ –وهو في أواخر أيامه– قائداً على الجيش الذي هيأه لقتال الروم... أي كان يريد إرساله إلى الأرض التي استشهد فيها أبوه قبل سنوات. غير أن أسامة عندما رأى اعتلال صحة الرسول ﷺ فضّل الانتظار في المدينة و لم يغادرها حتى وفاة النبي ﷺ.[2] يقول أسامة: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ من آطام المدينة. فقال: «هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القَطْر.»[3]

وبعد أن فارق رسول الله ﷺ الحياة وأصحابه امتلأت شوارع المدينة وأزقتها بالفتن. وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ من ضحايا هذه الفتن. فكأن هذه الفتن كانت تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها ''لقد صدقت.''

---

(١) **البخاري**، الأدب، ٢٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٠٥/٥

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٥/٢؛ «**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» لابن المنظور ٢٥٠/٤

(٣) **البخاري**، فضائل المدينة، ٨؛ **مسلم**، الفتن، ٩

١) الفتـــن

كان عمر بن الخطاب يخشى هذه الفتن طوال حياتـــه، وفي روايـــة عـــن الأعمش عن شقيق عن حُذيفة ﷺ أنه في أحد الأيام بينما كان عمر جالساً في جمع من الصحابة في المسجد سألهم:

أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال فقلت: أنا. قال: إنك لجريء. وكيف قال؟ قال قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفّرها الصيام والصلاة والصدقة والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر.» فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تمـــوج كموج البحر. قال فقلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين! إن بينك وبينـــها بابـــاً مغلقاً. قال: أفيُكسر الباب أم يُفتح؟ قال قلت: لا. بل يُكسر قال: ذلك أحرى أن لا يغلَق أبداً.

قال: فقلنا لحُذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم. كما يعلم أن دون غد الليلة. إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال فهبنا أن نسأل حُذيفـــة: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سله. فسأله فقال: عمر.[١]

كان عمر ﷺ يعلم ذلك. فقد طرق سمعَه سابقاً حديثُ رسول الله ﷺ عـــن الفتنة. وعندما جاء ميعادها ظهرت كما أخبر رسول الله ﷺ. فطُعن عمـــر بـــن الخطاب ﷺ من قبل مجوسي فارسي، فتلقّت الوحدة الإسلامية ذلك اليوم طعنةً عميقة في صدرها... أجل، لقد اختار أعداء الإسلام هدفهم اختيـــاراً جيـــداً،

---

(١) **مسلم**، الفتن، ٢٦؛ **البخاري**، الصوم، ٣

وضربوا هذا الهدف في الصميم. فبوفاته سالت الفتن كالسيل الجارف على أرض الإسلام... صحيح أن هذا كان خَطْباً عظيماً ورزءاً كبيراً، ولكنه كان من جهة أخرى تصديقاً وبرهاناً ناصعاً على صدق النبوة.

٢) النصر

جاء في البخاري وفي سنن أبي داود عن خَبّاب بن الأرتّ ﷺ قال:

شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا لـــه: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَـــر لـــه في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه فيُشَقّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، واللهِ ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب علـــى غنمـــه، ولكـــنكم قـــوم تستعجلون.»[١] وتحققت نبوءة الرسول ﷺ بحذافيرها.

٣) «أنتِ أول من يلحق بي»

جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها وهي تروي ذكرياتها عن الأيام الأخيرة للرسول ﷺ قالت: كُنّ أزواج النبي ﷺ عنده. لم يغادر منـــهن واحدة. فأقبلت فاطمة تمشي ما تُخطئ مِشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً. فلما رآها رحّب بها فقال: «مرحباً بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه.[٢] قالت عائشة

---

(١) **البخاري**، المناقب، ٢٥؛ **أبو داود**، الجهاد، ٩٧

(٢) **البخاري**، الاستئذان، ٤٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٨، ٩٩؛ **ابن ماجه**، الجنائز، ٦٤

رضي الله عنها: فسارّها بشيء فبكتْ، ثم دعاها فسارّها بـــشيء فـــضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ أنه يُقبَض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارّني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت".[١]

فكأنها في بكائها كانت تصف حالها بعد وفاة والدها:

ماذا علي مَنْ شَمّ تـــربة أحمدا ألاَّ يَشُمّ مـــدى الزمـــان غَواليا

صُـــبّت عليّ مصائبُ لو أنها صُبَّت على الأيـــام عُدْنَ لياليا [٢]

وبعد ستة أشهر فقط من وفاته ﷺ لحقت به فاطمـــة رضـــي الله عنـــها. وكانت وفاتها تصديقاً لنبوة أبيها رسول الله ﷺ.[٣]

٤) الصلح

ذكر معظم رجال الحديث في كتب الأحاديث الستة أن الرسول ﷺ أشار يوماً وهو على المنبر إلى الحسن رضي الله عنه قائلاً: «إن ابني هذا ســـيد، ولعـــل الله أن يُصْلِح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.»[٤]

أجل، إنه كريم بن كريم وحفيد لرسول الله ﷺ، وعندما أصبح خليفة ذات يوم تخلّى عنها وعن السلطة حتى لا يكون سبباً في التفرقة بين أمة الإســـلام، وأثبت بذلك كيف أنه سيد وابن سيد. فلم يمر سوى خمس وعشرين أو ثلاثين

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٨٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٨

(٢) «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي ١٣٤/٢؛ **ابن ماجه**، الجنائز، ٦٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٧/٣

(٣) **البخاري**، المغازي، ٣٨؛ **مسلم**، الجهاد، ٥٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٦/١

(٤) **البخاري**، الصلح، ٩؛ **الترمذي**، المناقب، ٣٠؛ **النسائي**، الجمعة، ٢٧؛ **أبو داود**، السنة، ١٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٩/٥

سنة على نبوءة رسول الله ﷺ حتى تحقق ما قاله حرفيّاً. فالأمويون رأوا الحسن أمامهم بعد وفاة علي بن أبي طالب، ولكن الحسن كان رجل صلح وسلام، لذا فقد تنازل عن جميع حقوقه لكي يصلح بين جيشي المسلمين ويمنع -ولو بشكل مؤقت- وقوع فتنة كبرى بين المسلمين.[1] وما أصدق ما قال الشاعر في حقه:

كريم بن كريم بن كريم وجده خير الأنام

عندما أخبر الرسول ﷺ بهذه الحادثة كان الحسن ﷺ طفلاً صغيراً، وربما لم يَفهم مرادَ الرسول ﷺ ولا ما أشار إليه، أي أنه لم يفعل ما فعله لأن رسول الله ﷺ قال ذلك، بل قال رسول الله ﷺ ذلك القول لكونه عالماً بما سيفعله، وكان الحسن ﷺ بعمله هذا يصدِّق جده، ويقول له بلسان الحال: ''صدقت!''

٥) سيعيش قرناً

عن عبد الله بن بُسْر: قال وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي فقال: «يعيش هذا الغلام قرناً.» فعاش مائة سنة وكان في وجهه ثؤلول، فقال: «لا يموت حتى يذهب الثؤلول.» ويقول الصحابة إنه عاش مائة سنة وذهب الثؤلول عن وجهه.[2]

وكما كان رسول الله ﷺ حسب سر الآية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٤) يتقدم كل يوم ويقطع الدرجات نحو العُلى ونحو الأفضل

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٨/٤٥

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٤٠٤-٤٠٥

ويكون يومه دائماً أفضل من أمسه، فإنه كان يستغفر كل يوم مائة مـــرة.[1] وكانت أمته تعرفه أكثر فأكثر كل يوم، وكان إيمانها يزداد به وبصدقه كلمـــا أظهرت الأيامُ صِدقَ الأخبار التي أخبر بها الرسول ﷺ عن المـــستقبل فتُـــرَدّد وتقول: "صدقت يا رسول الله!"

والآن لنعط بعض الأمثلة المتعلقة بالعهود البعيدة عن زمـــن الرســـول ﷺ والقريبة من زماننا الحالي. والأمثلة عن الأخبار المستقبلية التي ننتظـــر تحققهـــا أيضاً.

٦) **الأخبار التي أخبر بها في وقعة "الخندق"**

تكاد جميع كتب الأحاديث تجمع على إيراد الحادثة التالية التي جرت أثناء حفر الخندق حول المدينة. وكان النبي ﷺ يشارك صحابته في الحفر، وينشد:

«اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»[2]

فينشدون:

«واللهِ لولا أنت ما اهتدينا ولا تَصدّقـــنا ولا صلّيْنا

فأَنـــزِلنْ ســـكينة علينـــا وثبّت الأقدام إن لاقينا»[3]

يقول البراء بن عازب الأنصاري:

---

(١) **مسلم**، الذكر، ٤٢؛ **أبو داود**، الوتر، ٢٦

(٢) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٩؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٧

(٣) **البخاري**، المغازي، ٢٩؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٣-١٢٥

لما كان حين أَمرَنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنا في بعض الخنـــدق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رســـول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول وقال: «بسم الله» وضرب ضربة فكَسَر ثلثهـــا وقـــال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبصِر قصورها الحمر إن شاء الله» ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فـــارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض» ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صَـــنْعاء من مكاني الساعة.»[1]

و لم تمض إلا بضع سنين حتى فتح الله تعالى بسيوف سعد بـــن أبي وقّـــاص وخالد بن الوليد وغيرهما من كبار القوّاد كل هذه البلدان والممالك. وتم تـــسليم مفاتيحها إلى الشخصية المعنوية لرسولنا محمد ﷺ. وكان هذا دليلاً آخـــر علـــى صدقه. و لم يكن في الإمكان أصلاً إلا أن يكون هكذا، فلو فرضنا المستحيل و لم يحصل ما وعده رسولنا ﷺ، لحقق الله تعالى هذا الوعد لكي لا يكذِّب رسوله... كيف لا ورسول الله ﷺ يصف الصحابي البراء بن مالك رضي الله عنه بأنه «لو أَقْسم على الله لأَبرّه.»[2] أي لو أقسم البراء حول أمر صعب التحقق لحقق الله تعالى قَـــسَمه هذا. وكان الصحابة يقدمونه في الحرب لكي يضمنوا انتصارهم.[3] فهل يعطـــي الله أحد الصحابة مثل هذه المِيزة ولا يعطيها لرسوله ﷺ؟ فالله سبحانه تعالى أراه

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١١٦/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٠/٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٠٣/٤

(٢) **الترمذي**، المناقب، ٥٤ (والصحابي المذكور هو البراء بن مالك أخ أنس بن مالك).

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ١٤٣/١-١٤٤

فتـــح هذه البلدان رأي العين، وكان الرســـول ﷺ يخبر عما رآه.

٧) بشرى الأمن والغنى

روى عَدِيّ بن حاتم ﷺ قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عديّ! هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال: «فإن طالت بك حياة، لتَرَيَنّ الظعينة[١] تَرتحل من الحيرة حـــتى تطـــوف بالكعبة لا تخاف الا الله» -قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّـــار[٢] طَيِّـــئ الذين قد سَعّروا[٣] البلاد- «ولئن طالت بك حياة لتُفتحَنّ كنوزُ كـــسرى.» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتريَنّ الرجلَ يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يَقبله منه فلا يجد أحـــداً يقبله منه.»

قال: فرأيت الظعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ، لترونّ مـــا قـــال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخرج مـــلء كفه.»[٤]

لم ير عديّ تحقق النبوءة الثالثة، ولكن جاء اليوم الذي تحققت فيه أيـــضاً. ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز تحقق الشق الثالث من النبوءة، وأصـــبح

---

(١) **الظعينة**: هو في الأصل اسم الهودج ثم قيل للمرأة في الهودج. (المترجم)

(٢) **دُعّار**: جميع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق. (المترجم)

(٣) **سعّروا البلاد**: أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. (المترجم)

(٤) **البخاري**، المناقب، ٢٥

واقعاً مُعاشاً. ففي تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف كان توزيع الثروة عادلاً ومنظماً إلى درجة أنه لم يبق فيها فقير واحد. ولا نبالغ إن قلنا بأن مستوى الحياة الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي دول الغرب أقل بكثير من مستوى الحياة آنذاك في تلك الدولة. هذا علاوة على أن نظام توزيع الثروات في هذه الأمم غير عادل وغير متوازن أبداً؛ فإلى جانب فئة غنية وموسرة ومرفهة جداً نجد الطبقات الفقيرة التي تعيش ظروف حياة قاسية. وما كان مثل هذا التوزيع الجائر غير المتوازن موجوداً في ذلك العهد... عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.[1]

٨) شهادة عمّار

كان المسلمون منهمكين ببناء المسجد النبوي... الكل يعمل... فمنهم من يصنع اللبِن ومنهم من ينقلها ومنهم من يبني. وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم. فمر به عمّار بن ياسر ﷺ وهو يحمل لبنتين -بينما كان الباقون يحملون لبنة واحدة- فقال له رسول الله ﷺ: «ما دأبك إلى هذا؟» قال: يا رسول الله أريد الأجر. فجعل يمسح التراب عن منكبيه وظهره وهو يقول: «ويحك يا عمّار! تقتلك الفئة الباغية.»[2] أو: «أبشر! تقتلك الفئة الباغية.»[3] فأخبر النبي علي بن أبي طالب ﷺ بذلك ونبهه إلى أن عمّاراً سيستشهد وستقتله الفئة الباغية.

في معركة صِفّين كان عمّار في صف علي بن أبي طالب ﷺ واستشهد

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٩/٢٢٥

(٢) **البخاري**، الصلاة، ٦٣؛ **مسلم**، الفتن، ٧٠-٧٣

(٣) **الترمذي**، المناقب، ٣٤

فيها. وعَدّ أصحاب علي ﷺ هذه الشهادة دليلاً على أن الطرف الآخر فئة باغية.[1] صحيح أن صحابياً جليلاً قُتل في هذه المعركة، ولكن كل قطرة من دمائه سقطت على أرض المعركة كانت تقول: "صدقت يا رسول الله ﷺ!"

أجل، أيها القراء الأعزاء! فلو لم يُخبِر الله تعالى فكيف يستطيع الإنسان أن يعلم هذا..؟ هناك حالياً أفلام خيالية تقوم ببعض التنبؤات حول المستقبل؛ وهذا ليس بالأمر الصعب، ذلك لأن لديهم المقدمات والبدايات، ويمكن القيام ببعض التخمينات في هذه المسائل وربط الحوادث وتركيبها بعضها مع البعض الآخر.

بينما الأمور الغيبية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ لم تكن لها مقدمات ولا بدايات، وما كان بمقدور أي بشر مهما كان عبقرياً أن يخبر عن عُشر معشار ما أخبر الرسول ﷺ من أمور المستقبل وأمور الغيب؛ ذلك لأن العقول لها حدود لا تستطيع تجاوزها. إذ يستحيل معرفة هذه المسائل دون الاستعانة بالوحي أو الإلهام الغيبي. ومن ثم فلم يكن رسول الله ﷺ يعرف هذه المسائل من نفسه، بل لأن الله تعالى كان يخبره بها، وهذا هو سبب تصديق الأيام لكل ما قاله.

٩) قوم مارقون من الدين

في أحد الأيام كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم فأقبل شخص غائر العينين ناتئ الجبين كَثّ اللحية مُشرِف الوجنتين محلوق الرأس، ولعله كان يمثل ظهور أمة في المستقبل، فخاطب رسول الله ﷺ بكل صفاقة قائلاً: يا محمد اِعْدِلْ. قال: «ويلك!

---

(١) «**كنز العمال**» للهندي ٥٣٩/١٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٩٦/٧

ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل.»[1]

والرواية إما "خبتَ وخسرتَ" بفتح التاء الأخيرة، أي بضمير المخاطب، أو "خبتُ وخسرتُ" بضم التاء الأخيرة أي بضمير المتكلم. فالرسول ﷺ يريد أن يقول حسب الرواية الأولى: إن لم يكن نبي أمة شخصاً عادلاً فكيف تتعلم تلك الأمة العدالة؟ والناس الذين يعيشون في جو بعيد عن العدالة لا شك يعيشون في خيبة وخسران. ويريد أن يقول حسب الرواية الثانية: لو لم أعدل أُعَدّ من الخاسرين بينما بعثت نبياً ورسولاً ورحمة للعالمين.. إذن، فلا يمكن ألاّ أعدل.

وأراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يؤدب هذا الشخص الذي لا يعرف أدب الحديث، فقال لرسول الله ﷺ: ائْذَنْ لي فَأَضْرِبَ عُنُقَه. ولكن رسول الله ﷺ قال: «دعه فإنّ له أصحاباً يَحقِر أحدُكم صَلاتَه مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يَقرأون القرآن لا يجاوز تَراقيَهم، يَمرُقون من الدين كما يَمْرُق السَهْم من الرَّميَّة، يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى رِصافه[2] فلا يوجد فيه شيء ثم يُنظَر إلى نَضيِّه[3] وهو قِدْحُه[4] فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى قُذَذه[5] فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَق الفَرْثَ والدَّمَ،[6] آيتُهم رَجُلٌ أسودُ

---

(١) **مسلم**، الزكاة، ١٤٢؛ **البخاري**، الأدب، ٩٥، المناقب، ٢٥

(٢) **إلى رِصافه**: الرصاف مدخل النصل من السهم. والنصل هو حديدة السهم.

(٣) **إلى نَضيِّه**: السهم بلا نصل ولا ريش.

(٤) **القدح**: هو السهم الذي كانوا يستقسمون به.

(٥) **قُذَذه**: القذذ ريش السهم واحدها قُذّة.

(٦) **سبق الفرث والدم**: أي إن السهم قد جاوزهما و لم يعلق فيه منهما شيء. والفرث اسم ما في الكرش.

إحدى عَضُدَيْه مثل ثَدْيِ المرأة. أو مثل البَضْعة[1] تَدَرْدَرُ ويَخرجون على حينِ فُرْقَةٍ من الناس.[2]

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب ﷺ قاتلهم وأنا معه، فأَمَر بذلك الرجل فالتُمس فأُتي به حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ النبي ﷺ الذي نَعَتَه.[3]

إذن، فالذين مرقوا من الدين مروق السهم هم الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب ﷺ.[4] وهناك رواية في حديث صحيح: أن الرسول ﷺ قال قاصداً علي بن أبي طالب ﷺ: «إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلتُ على تنزيله.»[5]

أي إن الناس حاربوني ووقفوا ضدي عند نزول القرآن، وقاتلتهم على ذلك، وسيأتي يوم يفسَّر فيه القرآن تفسيراً خاطئاً ويؤَوَّل تأويلاً خاطئاً، وستحارب أنت هؤلاء الناس... وقد حدث هذا كما ذكرت كتب السير.

فكأن ذلك الشخص الغائر العينين، الناتئ الجبين قد خُلق وعامل رسول الله ﷺ تلك المعاملة السلبية لكي يظهر صدق رسول الله ﷺ. ولكن لا يرد على خاطر أحدكم بأنه سيؤجر على هذا... كلا! فكما لا يؤجر الشيطان لتسببه في

---

(١) **مثل البضعة تَدردر**: البضعة: القطعة من اللحم. تدردر: تضطرب وتذهب وتجيء.

(٢) **البخاري**، المناقب، ٢٥، الأدب، ٩٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٦/٣

(٣) **البخاري**، المناقب، ٢٥، الأدب، ٩٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٦/٣

(٤) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٠/٧-٣٢١

(٥) «**المسند**» للإمام أحمد ٨٢/٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٨٦/٥؛ ١٣٣/٩

اكتساب المؤمن ثواباً من الله بسبب مقاومته لوسوسته، كذلك لا يؤجر ذلك الشخص بسبب أنه كان وسيلة لظهور صدق رسول الله ﷺ. لأنها كانت وسيلة بطريقة غير محببة وغير مؤدبة مع رسول الله ﷺ.

١٠) أُمّ حرام وركوب البحر

كانت أم حرام بنت ملحان خالة رسول الله ﷺ بالرضاعة في رواية، وفي رواية أخرى قريبة أمه ﷺ وبمثابة خالته. فكان رسول الله ﷺ يزورها من حين لآخر، وقد يستريح عندها. وفي إحدى المرات استراح عندها ثم استيقظ يتبسم. فقالت له أم حرام:

ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتي عُرضوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأَسِرّة» قالت: فادْعُ الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها فقالت مثل قولها فأجابها مثلها. فقالت: أُدْعُ الله أن يجعلني منهم فقال: «أنتِ من الأولى.»[1] فخرجتْ مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول من ركب المسلمون البحر مع معاوية إلى جزيرة قبرص، فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتْها فماتت.[2] والمسلمون يزورون قبرهما في قبرص من ذلك الوقت حتى الآن ويذرفون الدموع ويدعون لهما؛ ولكن كل قطرة دمع تقع هي بمثابة تصديق لرسول الله ﷺ الذي أخبر خبراً غيبيا، وصدَّقت الأيام والحوادث قوله بكل دقة. وجزيرة قبرص وقبرهما هناك شاهدان لا يمكن لأحد أن يكذبهما.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٣، ٨؛ **مسلم**، الإمارة، ١٦٠-١٦١

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٤/٤٤١؛ **البخاري**، الجهاد، ٨

أجل، إن الأيام تظهر على الدوام صدق كل ما قاله وأخبر به رسول الله ﷺ عندما يحين الوقت المناسب لذلك. لذا، فإننا نجدد على الدوام شهادتنا بأنه رسول الله الصادق الأمين، ونقول بعدد ذرات أجسادنا: "صدقت يا رسول الله!"

أجل، قد تقصر تعابيرنا عن إيفاء هذه المعاني حقها، ولكن كل مؤمن يسمع هذا الصوت في ضميره. وهذا الصوت قوي وهادر إلى درجة أن عدم سماعه أو عدم الالتفات إليه يعد إنكاراً له، وهذا شيء مستحيل.

بـ - المستقبل البعيد

١) بنو قنطوراء

أخبر رسول الله ﷺ بأن قوماً سيظهرون وسيتسلطون على العالم الإسلامي فقال: «فإذا كان آخر الزمان جاء بنو قَنْطُوراء عِراض الوجوه صِغار الأعين ذُلْف الأُنوف[١].»[٢]

وتقول كتب التاريخ بأن هؤلاء القوم هم المُغول، والحقيقة أن هناك مصيبتين فادحتين ألمّتا بالعالم الإسلامي وقعت إحداهما في الأندلس من قبل "فرديناند (Ferdinand)" وكانت أنموذجاً للوحشية الغربية حيث قتل فيها الناس وأحرقت الكتب والمكتبات. والثانية كانت غزو المُغول الذي امتد إلى الأناضول وسورية ومصر، وتم فيه هدم كل معالم الحضارة والتمدن في هذه

---

(١) **ذلف الأنوف**: في أنوفهم فطس وقصر، مع استواء الأرنبة وغلظها. (المترجم).

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٩٥، ٩٦؛ **أبو داود**، الملاحم، ١٠؛ **ابن ماجه**، الفتن، ٣٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٤٠، ٤٥

البلدان وحوّلت إلى خرائب قبل أن يتم انسحابهم.

ولكون رسول الله ﷺ يهتم بأمر أمته وقَدَرها فإنه كان يقوم بتنبيهها بمثل هذه الأخبار، وكأنه يقول لها: عندما تستحق هذه الأمة العقاب فإن الله تعالى يرسل لها الظالمين لتأديبها. فالظالمون هم سيف الله الذي يتم بهم الانتقام أول الأمر، ثم ينتقم الله منهم. أي إن الظالمين لن يهنأوا بظلمهم ولكن الله يسلط الظالمين على المسلمين أول الأمر، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهو يحذر أمته من مثل هذه العواقب الوخيمة ومن التصرف بما يغضب الله تعالى ويجلب سخطه؛ ويصور لهم هذه المصائب والعواقب الوخيمة؛ كل ذلك لكي يتجنبوها، لأنه كان أنموذجاً للرحمة وللشفقة.

وعندما صدقت الأيام وبعد مضي (٦-٧) من القرون على ما تَنبّأ به وما أخبر عنه كانت هذه الأيام والتواريخ تشهد على صدقه وعلى صدق نبوته.

٢) فتح إسطنبول

ينقل الحاكم في "المستدرك" بأن رسول الله ﷺ أخبر بأن أمته ستفتح إسطنبول التي كانت تدعى آنذاك بـ"القسطنطينية". والرواية هي: قال رسول الله ﷺ: «لَتُفتحَنّ القسطنطينية، فلَنِعْمَ الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش.»[1]

وقد حاول كثير من الحكام العظام والقواد الكبار فتح إسطنبول في كل عهد، لكي يكونوا هم المعنيين بهذه البشارة. ولكنهم أتوا إلى إسطنبول ثم رجعوا عنها. فها هو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري -الذي يعد ضريحه

(١) «**المستدرك**» للحاكم ٤/٤٢٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٣٣٥

في إسطنبول جوهرة ثمينة في صدرها- شاهد من الشهود حول مجيء الكثيرين إلى أسوار إسطنبول ثم رجوعهم عنها. وأنا في الحقيقة أشعر بالحرج لأنني أضطر إلى تكرار معلومات يعلمها الجميع؛ وأعُدّ هذا مضيعة للوقت ولكني مع هذا أضطر إلى الوقوف حول مسألة أو مسألتين:

إن "اولوباطلي حسن" الذي تسلق أسوار إسطنبول في يوم فتحها لم يكن جندياً عادياً بل خرّيج مدرسة "أندرون" التي كانت أفضل المدارس آنذاك وصديق دراسة لـ"محمد الفاتح". كان هؤلاء آنذاك بضعة أشخاص منهم "خضر جلبي" القاضي الأول لإسطنبول و"اولوباطلي حسن" ثم الفاتح الكبير محمد الثاني... فهؤلاء الثلاثة درسوا معاً ونشأوا معاً وكانوا طلاباً في حلقة الدراسة نفسها.

تسلق "اولوباطلي حسن" أسوار إسطنبول واستطاع أن يثبت العَلَم العثماني على أسوارها على الرغم من أن جسمه قد أثخن من كثرة الطعنات والجروح. وبعد قليل كان محمد الفاتح بجانبه، فرأى ابتسامة عريضة ترتسم على وجه هذا البطل المسجّى على الأرض، سأله بحَيْرة: "ما هذه الابتسامة على شفتيك يا حسن؟" أجابه: "لقد كان رسول الله ﷺ يتجول هنا... لقد شاهدت وجهه الجميل... هذا سبب سروري".

وقد أخبر ﷺ بنبأ هذا الفتح قبل تسعة قرون... وها هو في يوم الفتح يتجول بين أبطال هذا الجيش الفاتح. وأنا أقول دائماً استناداً إلى هذا وسأقول بأنه لو اجتمع ثلاثة أنفار معاً بإخلاص قلب وصفاء نية لخدمة الدين فلا بد أن روحانية رسول الله ﷺ ستكون معهم وتباركهم.

وهكذا كان فتح إسطنبول ومن قبله استشهاد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري دليلاً آخر وشاهداً على صدق رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنه كان من أوائل من سمع بشرى فتح هذه المدينة. فتَحمّل مشقة الخروج للجهاد من المدينة المنورة حتى الوصول إلى هذه المدينة البعيدة، وأوصى بدفنه عند أعتاب أسوارها.[1]

٣) الوهن

أخبرنا الرسول ﷺ عن الحوادث القريبة من عصرنا وزماننا، فمن ذلك قوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتها.» فقال قائل: ومِن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولَينزعَنّ الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفَنّ الله في قلوبكم الوَهَن.» فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت.»[2]

عند إلقاء نظرة واحدة إلى هذا الحديث نفهم منه أنه سيأتي يوم تتداعى علينا الأمم وتتجمع ضدنا؛ وأنها ستقوم بنهب ثرواتنا الظاهرة منها والمخفية تحت الأرض؛ وتتقاسم هذه الثروات فيما بينها بعد أن تضع يدها عليها بكل وقاحة؛ وأننا سنقوم بوضع مائدتنا أمامهم وتهيئة اللقم لأفواههم؛ وأنهم سيبتلعون ما وضع أمامهم بشهية لا تَعرف الشبع... ولماذا يكون كل هذا؟ لأننا آنذاك لسنا أمة أصيلة مثل شجرة باسقة، بل نشبه الزبد والأوساخ التي تجرفها السيول... أجل، فمقابل خلافاتنا الفكرية والمزاجية التي مزّقتْنا شيعاً

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ١/٤٠٥

(٢) **أبو داود**، الملاحم، ٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٧٨

وأحزاباً، وحّدت المنافع والمصالح الدنيوية أعداءنا، وجعلتهم جبهة واحدة ضدنا فغلبونا وأذلونا.

كان الأعداء يخشوننا سابقا، لأننا كنا لا نخشى الموت مثلهم، بل نُقبل على الموت فرحين مستصغرين الدنيا ونراها لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة؛ أما الآن فقد أصبحنا نخشى الموت ونحب الحياة الدنيا ونتعلق بها أكثر منهم، وهم يعرفون ضعفنا هذا ويستغلونه أبشع استغلال فيضربوننا في الصميم.

قد يبدو هذا الحديث لأوّل وهلة وكأنه يتحدث عن الحروب الصليبية ويخبر عنها، ولكن إن تمعّنّا قليلاً لرأينا أنه ينطبق وبوضوح تامّ على الحوادث القريبة أيضاً.

كتب السيد "رائف قَرَه داغ" كتاباً أسماه "عاصفة البترول"، وقد اغتيل بسبب كتابه هذا، لأنه شرح في هذا الكتاب ما تَعرّض له الأتراك في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين من غدر وخيانة، كما شرح المؤامرات التي حاكها الأعداء.

كلنا يعرف كيف تكالب الأعداء على الدولة العلية العثمانية، فقد كان كل همهم الاستيلاء على ثرواتها ما ظهر منها وما بطن؛ وكان هذا التكالب والافتراس وحشياً بدرجة أفظع من أشد الحروب الصليبية شراسة... أجل، فقد دعا بعضهم بعضاً إلى هذه المائدة واقتسموا ثروات البلاد فيما بينهم ونهبوها.

كانوا كما وصفهم الشاعر محمد عاكف:

"بلايا مختلفة...

بعضهم من الهنود،
وبعضهم من آكلي لحوم البشر...
وبلايا أخرى لا أعرفها."

هذه البلايا اجتمعت ونهشت جسد الدولة العثمانية ومزقته إرباً إرباً ونهبت ثروتها وسرقتها. هجم علينا الصليبيون في الماضي تحت تأثير فكرة معينة، وكانت هذه هجمة الشخص الأوروبي الساذج الأحمق. فالجموع الأوروبية الساذجة المخدوعة كانت تتصور أنها آتية لإنقاذ قبر مريم العذراء.

وما كانوا يعرفون بأننا نبجل ونحترم مريم العذراء أكثر منهم، ذلك لأننا نعتقد أن مريم العذراء ستكون زوجة لرسولنا ﷺ في الجنة، أي إننا ننظر لها كأم للمؤمنين،[1] ولو كانت سيدتنا مريم العذراء حية لكنا نحن المدافعين عنها ضد أي شخص يريد مسها بأذى من قريب أو بعيد.

ما أريد أن أقوله هنا هو أن الإشارات الواردة في أحاديث رسولنا ﷺ ليست في حق الحروب الصليبية التي كانت نتيجة لمثل هذا التفكير الباطل والاعتقاد الخاطئ، بل هي تومئ إلى الحوادث المرعبة التي جرت في تاريخنا القريب والتي تجري الآن بكل ضراوتها وقسوتها؛ فالغرب لا يزال متفقاً ضدنا ولا يزال العالم الإسلامي مائدة مفتوحة أمامه، ولم يتخلص بعد من هذا الوضع. إذن، فما قيل قبل أربعة عشر قرناً لايزال يتحقق بحذافيره، ونحن نعيش هذا الواقع الآن.

---

(١) «**كنز العمال**» للهندي ٤٢٤/١١

٤) فتنة الشيوعية

يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ توجه يوماً نحو الشرق وقال: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قَرْنُ الشيطان.»[١]

فهناك احتمال قوي أن الرسول ﷺ كان يريد بهذا الحديث الإشارة إلى الفتنة التي ستظهر من جهة الشرق كبديل لأوروبا الظالمة. وكلمة "قرن" الواردة في الحديث تأتي بمعنى القرن الموجود في الحيوانات، أو تأتي بمعنى "العصر"، وأنا أرى أن المعنى الأخير هو المعنى المقصود، أي أن القرن هنا يأتي بمعنى العصر أو العهد، أي أن "قرن الشيطان" معناه "عصر وعهد الشيطان" وهو نقيض "عهد النبوة". فهذا النظام الشيوعي قائم على الإلحاد وعلى الإباحية وعلى جميع المفاسد الشيطانية التي تحاول التسلل إلى القلب عن طريق النفس الأمّارة... ومع أن هذا النظام الشيوعي الذي يُعَدّ الابن غير الشرعي للنظام الرأسمالي يحتضر في هذه الأيام إلا أنه لا يزال يعد ألد أعداء الدين والمقدسات والمواريث التاريخية، ولا يزال كابوساً مخيفاً،[٢] وأنا أعتقد أن رسول الله ﷺ يطلق على هذا العهد الذي سيطر فيه هذا النظام الشيوعي على مساحات واسعة من العالم... يطلق عليه "العهد الشيطاني" أو "القرن الشيطاني" ويحذر أمته من هذا الوباء ومن هذا البلاء.

---

(١) **البخاري**، الفتن، ١٦؛ **مسلم**، الفتن، ٤٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٥٠، ٧٢

(٢) أطلقت هذه الكلمات سنة ١٩٨٩

٥) كنـــز نهر الفرات

يقول الرسول ﷺ: «يوشك الفُراتُ أن يَحسِر عن كنـــز من ذهـــب –أو جبل من ذهب– فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً.»[١]

لقد جرت مقاتل كبيرة بالقرب من نهر الفرات حـــتى الآن. وإذا تناولنـــا التاريخ القريب نرى قتالاً كبيراً جرى بين العراق وإيران قرب نهر الفرات. وفي سنة ١٩٥٨ وقعت قرب نهر الفرات مجزرة قتل فيها أحفاد الرسول ﷺ.

إن هاتين الحادثتين لا يصح إيرادهما كتفسير للحديث الشريف أعلاه، غير أنه حتما يشير إلى حادثة مستقبلية ستجري هناك. مثلا قد تصبح مياه الفرات ثمينة مثل الذهب في عهد من العهود في المستقبل، والحديث يـــشير إلى هـــذا بشكل مجازي، أو أن الواردات التي سيتم الحصول عليها بعد إنشاء الخزانـــات والسدود عليه ستكون ثمينة وقيمة مثل الذهب. أو قد يكون معناه بأن ميـــاه الفرات ستنحسر تماماً وتكتشف تحتها منابع نفط غنية أو مناجم ذهب. ولكن مهما يكن فلا شك أن هذه المنطقة منطقة نهر الفرات ستكون مثل قنبلة موقتة وخطرة للعالم الإسلامي.

هذه الأمور والحوادث لم تظهر حتى الآن، فهي من الحوادث المـــستقبلية، وسيهتف الأقوام الذين سيدركون ويشاهدون تحقق هذه النبوءة "صدقت يـــا رسول الله!" وسيجددون إيمانهم.

---

(١) **البخاري**، الفتن، ٢٤؛ **مسلم**، الفتن، ٣٠؛ **أبو داود**، الملاحم، ١٣

٦) رجوع المسيحية إلى نقائها القديم

ينبئنا الرسول ﷺ بأن المسيحية ستنقرض وتزول وستتحد مع الدين الإسلامي.[١]

أجل، فعندما يقوم الملحدون بإلقاء القبض على المؤمنين، يقوم الذين بيدهم القوة الجوية بنصرة المؤمنين بعون من الله تعالى رغم أنوف الملحدين حيث سيكسرون شوكة الملحدين.

في هذه الحرب العالمية ستملأ الجثث كل مكان... وستقوم النسور بنقل هذه الجثث المنتشرة في كل مكان على سطح الأرض، والنسور هنا رمز لمؤسسة معينة وتحمل معنى خاصاً وإيماءة خاصة.

٧) الإصلاحات في الزراعة

ستكون هناك تطورات وقفزات في الزراعة، ونتيجة هذه التطويرات ستكون ثمرة الرمان ثمرة ضخمة تكفي الواحدة منها عشرين شخصاً. ويستطيع الشخص أن يستظل في ظل قِحْفها.[٢] كذلك ستكون حبات القمح حبات ضخمة. هذه الأمور غير موجودة حالياً ولا نراها ولكنها ستكون موجودة في المستقبل بكل تأكيد، ستكون مصداقاً لنبوة رسولنا ﷺ ووسيلة لزيادة الإيمان به، لأن العصور والقرون ستكون شاهدة ودليلاً على صدقه.[٣]

---

(١) انظر: **مسلم**، الإيمان، ٢٤٤-٢٤٧

(٢) **قِحْفُ الرُّمّانة**: قِشْرها. (المترجم)

(٣) **مسلم**، الفتن، ١١٠؛ **الترمذي**، الفتن، ٥٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٨٢/٣

إننا مفتونون بالمستقبل الذي سيولد من رحم الغيب، ولكننا في هذا المستقبل لن نجد سوى نوره ﷺ... فإذا انطفأ هذا النور فستصبح الحياة ظلمة أبدية.

٨) عدم التوازن في أيامنا الحالية

لنرجع إلى الأخبار والإشارات المتعلقة بزماننا الحالي. يقول رسول الله ﷺ:

«إن بين يدي الساعة تسليم الخاصَّة وفُشُوُّ التجارة حتى تُعين المرأة زوجها على التجارة، وقَطْعَ الأرحَام وشهَادة الزُّور وكتمَان شهَادة الحق وظهُور القَلم.»[1]

يصف هذا الحديث أيامنا الحالية وصفاً لا يحتاج إلى أي تأويل أو تفسير.

ستروج التجارة إلى درجة أن مقادير هائلة من رؤوس الأموال بالملايين وبمئات الملايين بل المليارات من الدولارات تستخدم فيها، إذ أن الملايين تصرف في الإعلانات وحدها، وكثيراً ما تستخدم المرأة في هذه الإعلانات وأحياناً تكون المرأة شريكة مباشرة في التجارة فتنزل إلى الأسواق وإلى المعارض، ولا يذهبن الظن بأحدكم بأنني ضد التجارة، وإنما أريد فقط الإشارة إلى صحة ما ورد في كلام رسولنا ﷺ.

وستنقطع صلة الأرحام، فحقوق الأم والأب وحقوق الأقارب سوف تهمل ولا يرعاها أحد، ولا يلتفت إليها بل تداس تحت الأقدام. وعندما يشيخ الأب والأم ويتقدم بهما العمر ويصبحان في حاجة إلى الرعاية والاهتمام والحنان يرسلان إلى دار العجزة وإلى دور المسنين لعلهما يجدان العناية التي لا يجدانها في بيتهما. هذا على الرغم من أن الله تعالى ذكر بأن حقوق الوالدين تأتي مباشرة

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٤٠٧/١-٤٠٨؛ «**المستدرك**» للحاكم ٩٨/٤

بعد حقوقه ﷻ.[1] ولكن وصايا الله تعالى ستهمل ولا يلتفت إليها أحد، وسيتعرض الآباء والأمهات إلى معاملات وحشية ومهينة وإلى عقوق كبير. أتنطبق هذه الشروح على أيامنا الحالية أم لا؟ سأترك هذا لفطنة القراء.

سيزداد تقدير القلم أي التأليف والكتابة وستعمل المطابع ليل نهار لتخرج مئات وآلاف الجرائد والمجلات والكتب، وستقوم دور النشر والطبع بطبع ونشر الكتب ودوائر المعارف، وستمتلئ رفوف المكتبات بآلاف من مختلف الكتب، وستنقلب الكتابة إلى مهنة رائجة ويحترم الكتاب والمؤلفون. وسيروج الكذب وشهادة الزور حتى تندر الشهادة الصادقة، إذ ينقلب المجتمع إلى مصنع لإنتاج وترويج الأكاذيب، وستستند الحياة الاجتماعية إلى الكذب والتلفيق والخيانة.

والموضوع يكتسب وضوحاً شديداً إلى درجة أن بعضهم قد يتساءل: "أصحيح أن هذا الكلام يعود لرسولنا ﷺ؟"

والإجابة على هذا السؤال بسيط جدا، فهذا الحديث مدون قبل ثلاثة عشر قرناً وهو موجود في كتب الحديث منذ ذلك الوقت. فإن لم تكن هذه الأقوال عائدة لرسول الله ﷺ فإلى من تعود؟ ومن يستطيع شرح وبيان الأحداث التي ستأتي بعده بعدة قرون وعصور وكأنه يراها رأي العين..؟ من يستطيع ذلك غيره؟ ثم لو كانت هذه الأقوال لشخص آخر غيره فإن معنى هذا أن صاحبها يملك رؤية نورانية نحو المستقبل كرؤية الرسول ﷺ. ولكن هل وجد في التاريخ رجل آخر

---

(١) انظر هذه الآيات: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرَائِيلَ لاَ تَعبُدونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالوَالِدَينِ إِحسَاناً﴾ (البقرة: ٨٣)، ﴿وَاعبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا وَبِالوَالِدَينِ إِحسَاناً﴾ (النساء: ٣٦)، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعبدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَينِ إِحسَاناً...﴾ (الإسراء: ٢٣).

يمكن أن يكون نداً أو شبيها له لكي تسند هذه الأقوال إليه؟ كلا... فهذه الأنباء عن الغيب تعود لرسول الله ﷺ، فقد علمه ربه وقام هو بإخبارنا وإعلامنا. أجل، فهذه الحوادث التي ظهرت في أيامنا دليل قاطع على مدى صدق رسول الله ﷺ.

٩) انتشار العلم

جاء في حديث قدسي أن الله تعالى يقول: «أبُثّ العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير.»[١]

فالناس على اختلاف طبقاتهم اليوم يدرسون في مختلف المدارس ذات المستويات المختلفة، وأصبحوا يتنافسون في الحصول على العلم. فكثرة الجامعات والمدارس وانتشار أجهزة الاتصال والمخابرة واستعمالها في مجال نشر العلم يدلنا على أن ما نقله الرسول ﷺ عن ربه هو إشارة إلى عصر العلم والمعرفة، وأن التطورات الحاصلة في هذا المجال تؤيد هذه النبوءة وتصدقها. فكأن هذه المؤسسات العلمية تقول بلسان حالها لرسولنا "أنت صادق في كل كلامك" بل إن العلوم نفسها ستقول هذا بعد أن تحول إلى مجراها الأصلي والحقيقي.

١٠) الفرار من القرآن

هناك حديث آخر ينطبق أيضاً على أيامنا حيث يقول: «لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتابُ الله عاراً ويكون الإسلام غريباً.»[٢]

فبينما يظهر الكافر كفره بكل صراحة وبكل علانية، فسيخجل المسلم من

---

(١) **الدارمي**، المقدمة، ٢٧

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ٢٤٤/١٤

إسلامه، ولا يصرح به إلا وهو محرج. وبينما يعلن الكفار عن أفكارهم وعن مطبوعاتهم وكتبهم في كل مكان، لا يستطيع المسلم فتح المصحف وقراءته علنا، وستكون الضغوط النفسية قاسية وثقيلة إلى درجة أنه ما من شخص يستطيع إعلان أنه من أنصار القرآن دون أن يشعر بالخجل حتى ولو لم يكن هناك قانون يمنع هذا. أيستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الآن؟ أوليست هذه إحدى المآسي التي يعيشها المسلم الآن؟ ألم يرجع الإسلام غريباً؟

والآن دعونا نختم تصوير هذه الأحوال المؤلمة لنقول إن رسولنا ﷺ أخبرنا ومنذ عدة قرون بما سيحدث مستقبلا، وكلما جاء زمن ذلك الخبر ظهر بشكل يوافق كلامه في كل شيء ويصدقه حتى في تفاصيله الدقيقة. ليت شعري! ألا يكفي هذا لكي نرجع ونجدد البيعة له؟

١١) مفهوم الزمن

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عاراً ويتقارب الزمان وتنتقض عراه.»[1]

وكلمة "التقارب" الواردة في الحديث تعني اقتراب شيئين من بعضهما، وهذا يشير من جهة إلى نسبية الزمان، ومن جهة أخرى إلى أن الأمور التي كانت تأخذ وقتاً طويلاً لإنجازها في العهود السابقة ستنجز في وقت قصير. فمن المعلومات البديهية التي يعلمها الآن حتى الأطفال أن التقدم الصناعي والتكنولوجي جعلنا ندخل إلى عالم من السرعة المذهلة في كل ناحية من نواحي حياتنا. وكما يشير الحديث الشريف إلى هذا الأمر فإنه يشير من ناحية أخرى إلى وسائط النقل

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٢٤/٧

السريعة التي قربت المسافات. كما أود الإشارة إلى مسألة يعرفها من يعمل في مجال علم الفلك والفيزياء الفلكية. وهي أن الأرض تأخذ تدريجيّاً وبمرور الزمن شكلاً بيضوياً، وهذا التغير يؤثر على الزمن وعلى ساعاتنا دون أن نشعر. وهناك معنى آخر أفهمه من هذا الحديث وهو: أن للزمن ماهية نسبية، ولكن مع هذا فأينما كان فالزمن هو زمن، فلو ذهبت مثلاً إلى برج الثور ونظرت من هناك إلى سحابة تبعد عنك أربعين مليون سنة ضوئية وتتحرك بسرعة ١٥٠ ألف كيلومتر في الثانية فستشاهد أزماناً مختلفة.

ولو استطاع الإنسان يوماً الخروج خارج المجموعة الشمسية فلا شك أن المفهوم الحالي للزمن سينقلب عنده رأساً على عقب. وهكذا فبوساطة كلمتين سحريتين وهما "تقارب الزمان" يشير رسول الله ﷺ إلى ما سيحدث من تغير في مفهوم الزمن عندنا.

ولنا أن نتساءل الآن: أمثل هذا القول قول بشر؟ من غير صاحب الزمان والمكان الذي يغيرهما بيد القدرة... من غيره كان يعلم مثل هذه الحقائق..؟ أكان هذا العلم ضمن قدرة شخص أمي عاش في بيئة أمية..؟ كلا طبعاً. فالله هو الذي علمه هذا من علمه وقام ﷺ بتبليغنا بذلك.

الأيام والشهور والأعوام والعصور تمضي والعلم والتقنية تتقدمان بخطوات جبارة، وعندما يتم الوصول إلى الهدف نرى هناك الحقائق التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ قبل عدة قرون، فلا يستطيع رجل العلم أن يخفي إعجابه فيقول من كل قلبه "أنت هو الصدق بعينه يا رسول الله!"

١٢) انتشار الربا

سيأتي يوم ينتشر فيه الربا ويفشو حتى لا يستطيع أن يتخلص منه من لا يتعامل به إذ سيصيبه غباره. وهناك حديث حول هذه العلة التي تعد من أكبر العلل الموجودة في يومنا هذا، والتي تنتشر انتشار السرطان كل يوم وتتوسع.

«ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا آكل الربا فمن لم يأكل أصابه من غباره.»[١]

هناك نقطتان تجذبان الانتباه في هذا الحديث:

الأولى: بما أن جميع مبالغ الدولة ونقودها تنطبخ في قدور الربا، وبما أن جميع المصارف -الربوية منها وغير الربوبة- وجميع المؤسسات المالية حتى غير الربوية منها يتعامل بعضها مع البعض الآخر، فإن الإنسان مهما أراد الحيطة في هذا الموضوع فلا بد أن يصيبه شيء من هذه العلة التي أحاطت بكل مظاهر الحياة واحتوتها، أي سيطفر إليه أيضاً شيء منها. ولا يستطيع الإنسان أن ينجو منها إلا بنيته، أي إن نيته هي حصنه وملاذه الوحيد.

الثانية: هناك معنى آخر في اللغة العربية لتعبير "أصابه من غباره" الوارد في الحديث: إذ يقوم قسم من الناس بأكل الربا، أما الذين لا يأكلونه فسيصيبهم غباره. فالرأسماليون سينمون ثرواتهم بالربا ويضاعفونها به؛ وفي الوقت نفسه ستزداد الطبقة العاملة بؤساً وفقراً بنفس النسبة؛ مما سيؤدي في النهاية إلى صراع بين هاتين الفئتين وإلى تصاعد غبار المعركة المحتدمة بينهما؛ مما يغرق

---

(١) **ابن ماجه**، التجارة، ٥٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٤٩٤؛ **النسائي**، البيوع، ٢

المجتمع في اضطرابات وفتن لا أول لها ولا آخر. ولا ينجو أحد من مشاكل ومصائب هذا الصراع وهذه الفتنة. وأنا أعتقد بأن كل هذا قد حصل وهو يحصل الآن. والإنسان المعاصر يشاهد ما أشار إليه الحديث لكلا هذين الأمرين ويقاسي منهما؛ فلم تعد هناك اليوم مؤسسة لم تتلوّث بالربا من قريب أو بعيد،؛ فالتجارة العالمية كلها تدور اليوم حول محور الربا؛ والمعاملة الربوية في العالم كله تَلقى قبولاً عاماً وتُعدّ بمثابة تبادل نقدي.

قام رسول الله ﷺ بتحذير أمته قبل عدة قرون من هذه الأزمة التي يتعرض لها الإنسان المعاصر، وطلب منها أن تكون منتبهة ويقظة وإلا وقعت في مستنقع الربا؛ ولكنه لا يبدي أي محاولة جدية للخروج منه؛ هذا مع العلم أن الإسلام دين أعلن الحرب على الربا.[1]

لو أن المسلمين فهموا جزءاً من هذا التهديد القرآني؛ لَما كانوا من آكلي الربا، ولما كانت أمتهم من أكثر أمم الأرض بؤساً وفقراً.

١٣) زمان استخفاء المؤمن

حديث آخر يصور عهدنا وهو: «يأتي على الناس زمان يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فيكم اليوم.»[2]

سيقوم المؤمن باستعمال الأساليب والوسائل نفسها التي كان يستعملها

---

(١) انظر الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ ۞ فإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرب مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَموَالِكُمْ لاَ تَظلِمُونَ وَلاَ تُظلَمونَ﴾ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ١١/١٧٦

المنافق في عهد الرسول لكي لا يكشف نفسه؛ سيخفي نفسه وسيخفي عبادته وصلاته، وإلا تعرض لمضايقات وآلام كثيرة. ذلك لأن الطغمة الفاسدة والشريرة لا ترضى أبداً بإعطاء فرصة لأمثال هؤلاء للعيش فيما بينهم. فأبواب العمل وكذلك بعض أقسام الوظائف الحكومية تكون مسدودة أمامهم، ويكونون مهانين ومبعدين عن المجتمع.

وهناك حديث آخر يقوي هذا المعنى: «ستكون فتنة يفارِق الرجل فيها أخاه وأباه؛ تطير الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة حتى يعيَّر الرجل فيها بصلاته كما تُعيّر الزانية بزناها.»[1] ومن الطبيعي أن تعيير المرأة بالزنى هو تشبيه لدرجة عيب الزنا آنذاك؛ غير أن الزنى أصبح الآن أمره هينا، بل يعد مهنة في بعض الأوساط.

أجل، فإذا قمنا بوضع بعض العهود التي أهين فيها الإنسان بسبب صلاته.. إذا وضعنا هذه العهود جانبا.. فإن هناك عهوداً قادمة سيُحتقر فيها المؤمن وستُعد الصلاة أمراً معيباً من قبل الفئات الحاكمة والظالمة التي سيئنّ المؤمنون تحت قبضتها القاسية، ولا يجدون أمامهم حلاً سوى إخفاء صلاتهم وعباداتهم.

١٤) النفط في الطالَقان

يقول رسول الله ﷺ: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»[2]

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٠٧/٧

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ٥٩١/١٤

وكلمة "ويح" تستعمل في العربية لبعض البشارات التي تشبه الابتسامة المُرّة. فعندما أخبر رسولنا ﷺ عمّار بن ياسر أنه سيستشهد استعمل التعبير نفسه فقال: «ويحك يا عمّار!»[1] أما الطالَقان[2] فهي اسم لمنطقة غنية بالبترول في قزوين، أي أن مآل الحديث هو ما يلي: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»

وقد تكتشف في هذه المنطقة معادن أخرى كاليورانيوم أو الألماس؛ ولكن هذا لن يغير النتيجة؛ فرسولنا تَحدّث عن كنوز ليست من ذهب ولا فضة وقد ظهرت هذه الكنوز في أيامنا هذه.

إذن، فحتى البترول الذي تم اكتشافه في طالَقان يصدّق رسول الله ويعترف بنبوته.

١٥) اتباع أهل الكتاب

أخبرنا الرسول ﷺ بأن العالم الإسلامي سيقوم بتقليد الأمم السابقة، أي بتقليد اليهود والنصارى خطوة فخطوة حتى لو أن واحداً منهم أدخل رأسه في جحر ضَبّ لَقلّده المسلمون وأدخلوا رؤوسهم في الجحر. ويشرح الرسول ﷺ هذا الأمر بكلماته البليغة الوجيزة: «لتتّبعُنّ سَنَن الذين من قبلكم شِبْراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جُحْر ضَبّ لاتبعتموهم.» قلنا: يا رسول الله! اليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن؟»[3]

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ٦٣؛ **مسلم**، الفتن، ٧٠-٧٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٦١/٢، ١٦٤

(٢) **الطالَقان**: بلدتان إحداهما بخراسان بين مَرْوْ الروذ وبَلْخْ. (المترجم)

(٣) **مسلم**، العلم، ٦؛ **البخاري**، الأنبياء، ٥٠

وموقفنا اليوم وموقف العالم الإسلامي اليوم معلوم للجميع. لقد فقدنا شخصيتنا وبدأنا نئنّ تحت أزمات فقدان الهويّة؛ وأصبحنا أشبه بالغنم الحائر بين قطيعين. لقد أصبحت العوامل التي كانت في وقت من الأوقات كافية لهدم الدول الأخرى والقضاء عليها تحيط بنا من كل جانب كالأخطبوط. وبدلاً من الانتباه والحذر فإننا لِغفلتنا حسبنا شباك الموت هذا من علامات المدنية وشروطها. أجل، فما من أمة في العالم قلدت الغرب في أي عهد من العهود مثل تقليدنا له والذي أصبح يحمل صفة الإدمان المزمن؛ فما من شيء جديد يظهر في الغرب حتى نقبله هنا دون أي تدقيق أو تمحيص؛ وأحياناً تفوق سرعة قبولنا له الكثير من الأمم الغربية. هذا بينما كان رسول الله ﷺ يخالفهم حتى في الكثير من المسائل الثانوية والفرعية.[1]

وليست هذه المسألة مناط بحثنا، لذا لا نريد تفصيلها. ولكن الأمر الذي نريد الوقوف عنده والتأكيد عليه هو قيام رسول الله ﷺ بإخبارنا بحدوث هذه المسائل والحوادث قبل عصور وقرون عديدة؛ ولقد وقعت وتحققت هذه الحوادث في حينها وساعتها. فكل حادثة تتجلّى عند كلام رسول الله ﷺ بشكل بشارة أو إنذار، تقوم بتصديق رسول الله ﷺ بلسان فصيح عندما يأتي وقتها.

ثالثاً: الأخبار المتعلقة بالعلوم المختلفة

سنتناول في هذا الفصل بشكل مجمل ما قاله رسول الله ﷺ حول المسائل المتعلقة بالعديد من العلوم وذلك كدليل وشاهد على صدقه.

---

(١) **أبو داود**، الصلاة، ٨٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٦٤-٢٦٥

يقوم رسول الله ﷺ بإيراد قول مّا، ثم ينقضي أربعة عشر قرناً وتقطع العلوم والمعارف الإنسانية أشواطاً بعيدة وتتقدم بسرعة مذهلة؛ فإذا بالعلماء الكبار – كل في ساحته– يصدق على قوله ﷺ ويعترف به باسم العلم وبلسانه. فما من حديث لرسول الله ﷺ تعرّض لتكذيب أو لتخطئة.

إن العلوم والتكنولوجيا التي بدأت تخطو للأمام خطوات جبارة وسريعة أدارت ظهرها للعلماء ووقفت بأدب وخشوع أمام رسول الله ﷺ لكي تقول له وهي تنحني أمامه: "صدقت." وما كان يمكن أن يحدث إلا هذا، ذلك لأنه رسول من عند الله.

وهنا سنقوم بإيراد بعض الأمثلة فقط، وندع التحليل العلمي لهذه المسائل للكتب والمجلات المتخصصة في هذه المواضيع.

أ . **الدواء لكل داء**

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وابن ماجة رحمهما الله: «ما أنزل الله داء إلا أنزل به شفاء.»[1]

أي ليس هناك من مرض إلا وقد خلق الله تعالى له دواء وشفاء. وليس هناك أي قول آخر يشجِّع على استحصال العلم ولاسيما في ميدان الطب والسعي فيه مثل هذا القول الوجيز الجامع والشامل؛ فقوله هذا يعني أنه ما من داء إلا وله دواء، أي يمكن العثور على أدوية لكل الأمراض الموجودة وذلك بعد توفيق الله وعنايته.

---

(١) **البخاري**، الطب، ١؛ **ابن ماجه**، الطب، ١

وفي رواية أخرى: «لكل داء دواء.»[1] وفي حديث شريف آخر: «تداووا فإن الله ﷻ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم.»[2]

ولو وجدوا طريقة لإطالة العمر ولتأخير الموت بشكل مؤقت فإنهم لن يستطيعوا الحيلولة دون المصير المقدر والطريق المرسوم للموكب الإنساني.. هذا الطريق الذي يبدأ من عالم الروح ويمر من مرحلة الطفولة فالشباب فالشيخوخة وينتهي إلى القبر ومنه إلى الحشر.. ثم ينتهي إمّا إلى الجنة أو إلى الجحيم. وليس في الإمكان سد هذا الطريق أبدا. فلابد للإنسان أن يولد ويكبر ثم يشيخ ويموت. ولكن خارج هذا الأمر فهناك أدوية لكل داء، وعلاج لكل مرض. المهم أن يتم البحث عنه واكتشافه.

ورسول الله ﷺ بهذه الأحاديث وبأحاديث أخرى مشابهة يدعو أهل العلم جميعاً وجميع من آتاهم الله موهبة وفضلا، وجميع الباحثين إلى تكثيف جهودهم وبذل مساعيهم لاكتشاف الأدوية ووسائل العلاج؛ ومن ثم فلتخصِّصوا من مبالغكم ومن ثرواتكم ما يكفي لإنشاء معاهد البحوث؛ ولتدققوا وتسيطروا على الطريق الواسع الممتد من مرحلة الطفولة حتى شاطئ الموت. فالقرآن الكريم دعا إلى هذا وحثّ على العلم وجعل معجزات الأنبياء مَثلاً أعلى في هذا. أجل، فكما كان الأنبياء قدوة حسنة في عالم الروح والمعاني السامية لإنقاذ البشرية من الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كذلك كانوا هداة ومرشدين في ساحة العلوم الصرفة؛ أي في الساحة التي يجول فيها العقل الإنساني ويصول. وأصبح كل نبيّ

---

(١) **أبو داود**، الطب، ١١؛ **مسلم**، السلام، ٦٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/٣٣٥

(٢) **الترمذي**، الطب، ٢؛ **ابن ماجه**، الطب، ١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٢٧٨؛ **أبو داود**، الطب، ١

أستاذاً في ساحة من هذه الساحات ومرشداً وهادياً.

ومن ثم يمكن القول بأن البشرية استلمت مفاتيح الهداية المادية والمعنوية من أيدي الأنبياء. أجل، فإن شرح معجزات الأنبياء في القرآن الكريم تشويق للبشرية وحث لها لكي يبلغوا ويصلوا إلى تلك الحدود النهائية التي خطها الأنبياء بمعجزاتهم.

فمثلاً قام المسيح عليه السلام بإحياء الموتى بإذن الله. كما نقل لنا ذلك القرآن الكريم. إلا أن هذه هي الحدود النهائية للطاقة الإنسانية. لماذا؟ لأن القوانين تنتهي هناك، ومن بعدها تبدأ الأمور الخارقة. فالقدرة الإنسانية والطاقة الإنسانية والإرادة الإنسانية لا تستطيع تجاوز إطار القوانين الفطرية. أجل، فمهما ترقّى العلم الإنساني وتقدمت التكنولوجيا الإنسانية فلا يمكنهما تجاوز حدود المعجزات. لأن هذه الحدود هي الساحات التي يجول فيها الأنبياء العظام. بمعنى أن العلم الإنساني يستطيع الوصول إلى الحدود التي تبدأ بعدها المعجزات. ويتم حث الإنسان وتشجيعه للوصول إلى هذه الحدود.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن معجزات السيد المسيح عليه السلام ليقول لنا: انظروا فإن طرق العلاج والتداوي مفتوحة أمامكم حتى الوصول إلى حدود الموت. والأمراض التي لم تجدوا لها علاجاً مثل السرطان والأيدز وغيرها من الأمراض، لها أدويتها وعلاجها.. ابحثوا عنها وجِدوها.. فكم من مرض كان يُعتقد من قبل أنه لا علاج له اكتُشف علاجه وطرُق الشفاء منه الآن. فلتحاولوا وعندها ستجدون العلاج لهذه الأمراض.

ولنأخذ مثالا آخر. إن معجزة النبي موسى عليه السلام تعطي درساً للإنسان حول

إمكانية تسخير الجماد في إنجاز وظيفة ومهمة معيَّنة. ولقد انفتح باب هذا الأمر قليلاً في أيامنا الحالية، ولكن لا يمكن اليوم ولا غداً إلقاء عصا وقلبُها إلى حيّة تسعى.. لأن هذه حادثة وقعت في ساحة المعجزات والخوارق؛ أما نحن فنستطيع أن نبذل جهودنا ضمن إطار القوانين العادية الجارية على الأرض.

وأرى من المناسب هنا أن أفتح الحديث عن القرآن الكريم الذي يعَدّ معجزة لا تصل إليها الطاقة البشرية. أجل، إن القرآن معجزة أدبية وبيانية لا يمكن الوصول إلى أفقها. فكل الأشعار والقطع الأدبية البليغة التي سحرت الإنسان بجمالها لا تستطيع إلا الاقتراب فقط من عتبة القرآن الذي يعَدّ الأفق النهائي للبلاغة حيث يقف قِبله الأدباء من أمثال "لبيد" وغيره عاجزين؛ لأن في بيانه معجزة، بينما الكلام البشري لا يستطيع تجاوز ساحته العاديّة. ولن نطيل في هذا البحث، لأن له موضعه الخاص به في هذا الكتاب.

وجملة القول: إن معجزات الأنبياء تشكل حدوداً معيَّنة وتُخطّ أفقاً محددا للعلم الإنساني. ويعد ذكر القرآن لها حثاً ودفعاً للإنسان ليبلغ حدود هذه المعجزات.[1]

ومن ثم فعلى الإنسان أن يسعى حتى يصل إلى تلك النقطة ويقترب من حدود تلك المعجزات الخارقة. ولو فرضنا أنه خطا خطوة واحدة وراء ذلك الحد لجال في الآفاق التي تتدلى منها ثمرات هذه المعجزات.

قد يستطيع الإنسان أن يتقدم في علم الطب حتى يقترب من حدود إحياء

---

(١) «**الكلمات**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٧٩

الموتى. ولكنه سيقف عاجزاً أمام الموت نفسه. ذلك لأن الموت –مثله في ذلك مثل الحياة– مخلوق من قبل الله ﷻ، والآية الكريمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (الملك: ٢) تشير إلى هذا.

أجل، إن الموت ليس انقراضاً أو تفسخاً وتحللاً... بل هو استرداد بمشيئة الله وإرادته للأمانة التي سبق وأن استودعها الإنسان. فهذا هو آخر ما يمكن أن يقال في تشجيع أهل الهمّة والعلم لكي يقدّموا كل ما يستطيعونه لخدمة الإنسانية.

إن هناك أحاديث كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة، ولاسيما فيما يتعلق بـ"الطب الوقائي" الذي يشكل جزءاً مهمّاً من علم الطب. وهذا شيء طبيعي، ذلك لأن علاج المرض ليس هو المهم، بل الأهم منه هو حفظ صحة الإنسان، وحمايته من الوقوع في المرض. وهذا أسهل بكثير من القيام بعلاجه بعد إصابته بالمرض. لأن العلاج صعب ومكلف وشاق. لذا، فقد اهتم رسولنا ﷺ أول الأمر بهذا وجعل أكثر وصاياه الطبية مركزة حول الطب الوقائي.

ولا عجب ألا يجد الأطباء النصارى الذين أتوا إلى المدينة المنورة في العهد النبوي عملا؛ وذلك بفضل رعاية المسلمين لوصايا الرسول ﷺ في هذا الموضوع رعاية تامة. فبينما كان الرسول ﷺ يقوم بإصلاح أمراض القلوب والنفوس فإنه كان يقوم أيضا بشفاء الأمراض الجسدية، أي إنه كان يقوم بحفظ وصيانة أتباعه من الأمراض النفسية والقلبية والجسدية.

كان مرض الطاعون منتشراً في عهد الرسول ﷺ و لم يكن باستطاعة أحد أن يقف أمام هذا المرض القاتل. إذ كان بخطورة مرض الأيدز حاليّاً. إلا أن الصحابة كانوا على حذر من هذا المرض لأن الرسول ﷺ كان ينبههم إليه

ويحذِّرهم منه. فكانت هذه الجماعة الطاهرة تعيش في بلدها وتحفظ نفسها منه بحياتها النظيفة الطاهرة. غير أنهم عندما كانوا يشتركون في الحركات العسكرية في الشام وسورية وحلب وأنطاكيا كانوا يتعرضون لهذا المرض لاتصال هـذه المناطق آنذاك مع أمراض عالم البيزنطيين... كذلك كان وباء عَمْواس الـذي توفي بسببه في ذلك المكان المشؤوم خمسة وعشرون ألف مسلم.[1]

وكان أبو عبيدة بن الجرّاح أمين هذه الأمة ضمن الموجودين في عَمْـواس آنذاك. هذا الصحابي الذي قال عمر بن الخطاب ﷺ في حقه بعـد سـنوات عندما طُعن في صدره: "لو كان أبو عبيدة حياً لولّيتُه."[2] وعندما أتـى وفـد نَجْران إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يرسل معهم شخصاً موثوقاً وأمينـا، بعث أبا عبيدة بن الجرّاح.[3]

أجل، كان هذا الصحابي الجليل أحد العشرة المبشّرة بالجنة وأمـين هـذه الأمة، وكان موجوداً في موضع يجتاحه هذا المرض الوبيل ويحصد الأرواح فيه.

كان ذلك في أيام خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. وكان الخليفة يزور البلدان المفتوحة ويراقب تطوّر الأمور عن كثب. وكان من المفروض أن يـذهب إلى عمواس أيضاً. إلا أنه عندما سمع بانتشار وباء الطاعون فيها قرر الرجوع، فقال له أبو عبيدة الجرّاح في رواية عن ابن عباس: "أفِراراً من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة!" -وكان عمر يكره خلافه- "نعم، نفِرّ من قدر الله

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٧/٩٠-٩١؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ٢/٥٦٠

(٢) «**كتاب فضائل الصحابة**» للإمام أحمد بن حنبل ٢/٧٤٢

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٥٤-٥٥

إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عُـدْوتان. إحـداهما خصْبة والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتَها بقدر الله وإن رعيـتَ الجَدبة رعيتَها بقدر الله؟"[1]

كان هذا حدساً وفراسة من عمر بن الخطاب ﷺ. ولكن أكان مـصيباً في هذا؟ أكان عليه أن يرجع أم يبقى؟ كان الخبر اليقين عند الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

لنقرأ بقية الرواية: قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً في بعـض حاجته، فقال: إنّ عندي من هذا علماً، سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فـراراً منه.» قال: فحمد اللهَ عمرُ بن الخطاب ثم انصرف.[2]

وأنا أسأل القارئ: أليس هذا هو الحَجْر الصحي الذي يوصي به علم الطب الحديث؟ كان الرسول ﷺ يوصي به قبل قرون عديدة، إذن، فإن علم الطـب اليوم لا يملك إلا أن يقول له: ''صدقت يا رسول الله!''

بـ . مرض الجذام والحَجْر الصحيّ

يقول الرسول ﷺ في حديث يرويه الإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري: «فِرّ من المجذوم كما تَفِرّ من الأسد.»[3]

---

(١) **البخاري**، الطب، ٣٠؛ **مسلم**، السلام، ٩٨

(٢) **البخاري**، الطب، ٣٠؛ **مسلم**، السلام، ٩٨

(٣) **البخاري**، الطب، ١٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٤٣/٢

وهذا التمثيل الوارد في هذا الحديث الشريف لا علاقة له بجرثومة الجـــذام ولا بكون المجذوم يشبه الأسد. فهذا من خيالات وأوهام البعض، إذ لا يوجد مثل هذا المعنى ولا هذا القصد في حديث الرسول ﷺ. والفرار الوارد هنا ليس فراراً بالمعنى الحرفي. فلعل الرسول ﷺ يريد توصيتنا بمكافحة هذا المرض الوبيل والبحث عن طرق الوقاية منه. أي القيام بالحَجْر الـــصحي وباتخـــاذ التـــدابير اللازمة لمنع سرَيانه وانتشاره. فكما يخاف الإنسان من ملاقاة أسد فعليـــه أن يخشى التلوث بهذا المرض بنفس القدر. إن هناك معاني عميقة في جميع أحاديث الرسول ﷺ، لذا يجب بذل مجهود كبير لفهم أبعادها.

ج . ولوغ الكلب

ينقل الإمام مسلم وغيره من أئمة الحديث الحديثَ التالي:

«طهور إناء أحدكم إذا وَلَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[1]

أوصى الرسول ﷺ باستعمال التراب في عملية التعقيم إذ لم تكـــن المـــواد والأدوية المعقِّمة موجودة في تلك الأيام. ثم تبيَّن فيما بعد أن التـــراب يقـــوم بعملية التطهير مثل الماء. وبعد أن تقدم العلم أكثر تبين أن التراب يحتوي على مادة "التتراليت" و"تتراسكلين". وهاتان المادتان تستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم، فعندما أوصى الرسول ﷺ بغسل الإناء بالتراب أولاً كـــان يريد تعقيم الإناء قبل غسله.

---

(١) **مسلم**، الطهارة، ٩١؛ **أبو داود**، الطهارة، ٣٧؛ **الترمذي**، الطهارة، ٦٨؛ **النسائي**، الطهارة، ٥١، المياه، ٧

وشيء آخر تجدر ملاحظته في هذا الحديث، وهو أن بعض الأمراض التي تصيب الكلاب يمكن أن تصيب الإنسان أيضاً وتعيش جراثيمه في جسده، وهذا يعد من المواضيع الحديثة نسبيّاً في علم الطب.

ثانياً: إن براز الكلب ولعابه يمكن أن يكونا ضارين لصحة الإنسان. وإذا لم تؤخذ التدابير الضرورية في حينه فإن الأمراض السارية والمتنقلة بواسطتها لا يمكن علاجها بسهولة، لذا فإن عملية التعقيم مهمة جداً.

ثالثاً: والشيء الآخر الذي يجلب الانتباه هو أن الإناء بعد أن يتعقم من الجراثيم عند الغسل الأول بالتراب يجب غسل الإناء ست مرات -وفي رواية: سبع مرات-. وقد تناولت بعض المجلات في إنكلترة وفي ألمانيا هذا الموضوع وأقرت بصحة توصية الرسول ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يبدي حساسية شديدة في موضوع الكلاب، حتى أنه أمر مرة -اجتهاداً منه- بقتلها.[1] ولكنه عاد وأوقف هذا الأمر قائلاً: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها.»[2]

وهذا معناه أن الكلاب لو لم تكن أمة بين سائر الأمم المختلفة مثل الإنسان والنباتات والجماد والتي لها علاقة بحفظ التوازن البيئي، ولو لم تكن هناك ضرورة فطرية لوجودها لأمرت بقتلها. وذلك لكونها مباءة للجراثيم، وهذا الأمر الأخير

---

(١) **البخاري**، بدء الخلق، ١٧؛ **مسلم**، الطهارة، ٩٣

(٢) **أبو داود**، الأضاحي، ٢١؛ **الترمذي**، الصيد، ١٦؛ **النسائي**، الصيد، ١٠؛ **ابن ماجه**، الصيد، ٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٨٥/٤

أي تناوُل الرسول ﷺ المسألة من هذه الوجهة معجزة أخرى. ذلك لأنه ﷺ كان يتناول موضوع التوازن البيئي -الذي يعد من المواضيع الجديدة في أيامنا- من ذلك التاريخ ويحرم انطلاقاً من وجهة النظر هذه قتل الحيوانات حتى الكلاب. واليوم وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة بدأنا ننتبه إلى ضرورة منع انقراض أنواع عديدة من الحيوانات والمحافظة عليها كالحيتان والأفيال ووحيدي القرن...الخ. وذلك للحفاظ على التوازن البيئي في الطبيعة. ومن ثم إن تناول رسول الله ﷺ هذا الأمر قبل أكثر من ألف سنة بقوله إنه «لولا أن الكلاب أمة من الأمم» يعد تناولاً مبكراً جداً لموضوع في غاية الأهمية.

أجل، إن الله ﷻ خلق الكون ووضع موازين دقيقة بين مخلوقات هذا الكون وعناصره. والآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطغَوا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن: ٧-٨) تشير إلى هذا المبدأ العام. فلقد كان رسول الله ﷺ رجل توازن، لذا فمن الطبيعي أنه كان يحافظ على التوازن ويمنع حتى قتل الكلاب. وقد تُستخرج معان أخرى في المستقبل من كلامه الوجيز البليغ. ولو أن شخصا غيره لم يتلفظ طوال حياته إلا بهذه الجملة -إن أخذنا تاريخ هذا الكلام بنظر الاعتبار- لكان ذلك كافياً لأن يأخذ مكانه بين المشهورين في التاريخ، مع أن لرسول الله ﷺ آلافاً من هذه الأحاديث وأمثالها. إذن، لندع العبقرية تتسوّل على بابه ولنختم هذا الموضوع.

إنه يحق لنا أن نقول دون أيّ تردد، ونؤكد دون أدنى مبالغة بأن الحوادث والوقائع تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها: "أنت رسول الله الصادق الأمين." وكلما تقدمت العلوم وزادت دقتها وضح هذا الأمر أكثر. وأنا على يقين بأنه

سـيأتي اليوم الذي سـيؤمن بهذا جميع الناس وعامة البشر.

إن العلوم اليوم خاضت في محيط الوجود تحلّل وتدرُس وتمحّص كل الحقـائق التي ذكرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. وفي كل يوم تظهر حقائق حول صدق الرسول ﷺ يعلنها كل من يملك شفافية قلب من العلماء من فـوق آلاف المنابر على الناس أجمعين.

د . غسل اليدين قبل الأكل وبعده

في حديث يورده الترمذي وأبو داود يقول الرسول ﷺ: «بركـة الطعـام الوضوء قبله والوضوء بعده.»[1] أي إن كنتم ترغبون في بركة الطعام وطهارتـه ونظافته فاغسلوا أيديكم قبل الطعام وبعده وكأنكم تتوضؤون.

والرسول ﷺ يضع بحديثه هذا مبدأ عاماً في النظافة، وإلا فإننا لم نكن لنـدرك هذا بعقولنا، ولاسيما إنسان ذلك اليوم ما كان ليعرف أبداً أن الملايين من الجراثيم قد توجد بين أظافره. دع أهل ذلك الزمان وقل لي كم من شخص يعرف اليـوم الماهية العلمية لهذه المسألة؟

كذلك فمن قواعد النظافة التي علَّمَنا إياها رسولنا ﷺ هو القيام بغسل اليد جيداً بعد الاستيقاظ من النوم وقبل غمسها في أي إناء. ذلك لأن الإنـسان لا يعلم في أثناء نومه أين باتت يده.[2] فرسول الله ﷺ كان يهتم بنظافة الأيـدي اهتماماً كبيرا، لذا ركز اهتمامه فيها وأوصى بها في مواضع عديدة.

---

(١) **أبو داود**، الأطعمة، ١١؛ **الترمذي**، الأطعمة، ٣٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٤١/٥

(٢) **البخاري**، الوضوء، ٢٦؛ **مسلم**، الطهارة، ٨٧؛ **النسائي**، الطهارة، ١، ١١٦؛ **أبو داود**، الطهارة، ٤٩؛ **الترمذي**، الطهارة، ١٩

ولقد بدأ الأطباء يفهمون اليوم حكمة هذه الوصية، فالإنسان لا يدري ماذا مسّت يده وهو يتقلب في فراشه أثناء نومه. فقد تتسخ يده، فكيف إذن، يمدها إلى إنائه أو إلى فمه؟ فهل كانت هناك مجاهر وميكروسكوبات أو أشعة اكس أو مختبرات التحليل لكي يعرف الرسول ﷺ أن اليد ستتلوث بالجراثيم ثم يقوم بتنبيه أمته إلى هذا الأمر؟ كلا. لم يكن أي من هذه الأمور موجودة. ولكن كان هناك فوق كل هذه الأمور من يوصل إليه هذه الحقائق عن طريق الوحي ويعلمه بالوحي المتلو أو غير المتلو، فيقوم الرسول ﷺ بنقل هذه الحقائق إلى أمته، لذا لا يمكن العثور في كلامه على أي خطأ أو على أي خلاف للحقيقة وللواقع.

هـ . السواك: نظافة الفم والأسنان

ورد في كتب الأحاديث الستة وغيره حديث رواه ما يقارب أربعين صحابياً. فهذا الحديث من هذه الجهة يعد حديثاً متواتراً: «لولا أن أَشُقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة.»[1]

وحتى لا يشق النبي ﷺ على أمته فإنه لم يقم بهذا الأمر، وإلا كان السواك حينئذ من فروض الصلاة كالوضوء مثلاً. ولكن هذا لا يتفق مع روح الدين القائم على اليسر، ذلك لصعوبة أن يجد كل شخص سواكاً في كل مكان.

السواك ليس فرضاً، ولكنه سنّة ثابتة. وقد كتب القدماء مجلدات حول هذا الموضوع، وقام اليوم كثير من الباحثين بتناول موضوع السواك من مختلف الجوانب العلمية، وستطلعون على هذه البحوث في المستقبل إن شاء الله.

---

(١) **البخاري**، الجمعة، ٨؛ **مسلم**، الطهارة، ٤٢؛ **أبو داود**، الطهارة، ٢٥؛ **الترمذي**، الطهارة، ١٨؛ **النسائي**، الطهارة، ٦؛ **ابن ماجه**، الطهارة، ٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٨٠/١

السواك يعني تنظيف الأسنان، ولا يتم هذا بالسواك فقط، بل يمكن أن يتم باليد أو بالملح أو بالمعجون أو بوسائل أخرى. أجل، يستطيع كل شخص تنظيف أسنانه بالطريقة التي يرغب فيها. ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه شيئاً، ولكن يجب ألا ننسى أن للسواك خصائص خاصة به.

والآن تأملوا ديناً يقوم مبلِّغه –وليس واضعه، ذلك لأن واضعه هو الله سبحانه تعالى والرسول ﷺ مبلغ للدين– باستعمال السواك ما بين خمس أو عشر مرات في اليوم الواحد، ويقوم بجعل السواك سنة في أمته.. لذا، نستطيع القول بأن مثل هذا الدين سبق المفهومَ الحالي لنظافة الأسنان والمفهوم العلمي لوقاية الأسنان أو ما يطلق عليه الفرنسيون (hygieniqui) وأنا لا أعتقد أن هناك طبيب أسنان دع عنك عوام الناس يقوم بتنظيف أسنانه خمس أو عشر مرات في اليوم. علماً بأن عدد المرات التي كان نبينا ﷺ يقوم بالسواك يومياً هو هذا العدد في الأقل. إذ كان يقوم عدة مرات في الليل للصلاة وفي كل مرة ينظف أسنانه بالسواك.[1] إذ كان يستعمل السواك عند وضوئه وقبل الصلوات في الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكذلك بعد تناول أي طعام. فإذا عددنا هذه المرات نرى أنه يفوق العدد الذي سبق وأن ذكرناه في تنظيف أسنانه.

و . التوازن في الأكل

يقول رسول الله ﷺ في باب الطب الوقائي: «ما ملأ ابن آدم وِعاءً شرّاً من بطن. بحسْبِ ابن آدم أُكُلات يُقمن به صلبه، فإن كان لا محالة فثُلُثٌ

(١) **البخاري**، الوضوء، ٧٣؛ **مسلم**، الطهارة، ٤٦، ٤٧

لطعامه وثُلثٌ لشـــرابه وثُلثٌ لِنَفَسِه.»[1]

وهناك أحاديث أخرى تقوي وتسند هذا الحديث منـــها: «أخـــشى مـــا خشيت على أمتي كِبَر البطن ومداومة النوم والكسل وضعف اليقين.»[2]

والأمور المذكورة في هذا الحديث تلتقي عند نقطة واحدة. فمـــن عـــاش حياته في غفلة دون أن يراقب نفسه فسيقضي معظم وقته في النوم والكـــسل وسيسمن ويكثر شحمه. وكلما زاد سمنة زاد إقبالاً على الطعام، وكلمـــا زاد نهمه زادت غفلته. أو نستطيع البدء من السبب الأول فنقول إن من يأكل كثيراً سينم كثيراً، ومن ينم كثيراً يكن شخصاً ضعيف اليقين.

فمن أين نظرت علمت أن هذه أمور تسوق رسول الله ﷺ إلى القلق على أمته منها. وهنا أترك الكلام للمختصين في عالم الطب وتحليلاتهم العلميـــة في هذا الخصوص. وعندما تقرأون أو تستمعون إلى تحلـــيلاتهم ســـترون مـــدى مصداقية ما قاله الرسول ﷺ قبل عدة قرون، ولن تجدوا فيه انحرافاً ولـــو قيـــد شعرة عن الحق وعن الحقيقة.

ز . الكحل

والآن لننتقل إلى حديث آخـــر. إذ يقـــول رســـول الله ﷺ: «وإن خـــير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر ويُنبت الشعر.»[3] أي يطيل أهدابكم.

---

(١) **الترمذي**، الزهد، ٤٧؛ **ابن ماجه**، الأطعمة، ٥٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٣٢/٤

(٢) «**كنـــز العمال**» للهندي ٤٦٠/٣

(٣) **مسلم**، السلام، ٨٨؛ **أبو داود**، الطب، ١٤؛ **الترمذي**، الطب، ٥، ٩؛ **النسائي**، الزينة، ٢٨؛ **ابن ماجه**، الطب، ٦، ٢٥

يقول أطباؤنا –ممن نور الله أبصارهم وبصائرهم– إن الكحل من أفضل الأدوية المستعملة في تغذية العيون والأهداب، ونحن نعتقد بأن السنين القادمة لعالم الزينة ستكون سنين الكحل. وهناك مادة أخرى في مستوى الكحل من ناحية قيامها بوقاية الجلد وامتلاكها لخصائص المضادات الحيوية هي مادة "الحِنّاء" [1] إذ تبين علمياً أن قوة التعقيم الموجودة فيها أكبر من قوة التعقيم الموجودة في "اليود" أو مادة "مورفسيلون" المستعملتين حالياً.

ح . الحبة السوداء

في حديث ورد في صحيح البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «إن في هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السامَ.»[2] أي إلا الموت.

وتعبير "كل داء" يرد في اللغة العربية إشارة إلى الكثرة وكناية عنها، ومع ذلك فلو تم تحليل هذه الحبة تحليلاً علمياً دقيقاً وأجريت عليها البحوث العلمية فسيظهر كيف أنها علاج ودواء للكثير من الأمراض. يشير الحديث الشريف إلى نقطتين:

الأولى: حول الناحية العلاجية للحبة السوداء.

الثانية: حول عدم كونها علاجاً للموت.

وكعادتنا فسنترك الناحية العلمية لأهل الاختصاص، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمور الواردة على خاطرنا:

---

(١) **ابن ماجه**، الطب، ٢٩؛ **الترمذي**، الطب، ١٣

(٢) **البخاري**، الطب، ٧؛ **مسلم**، السلام، ٨٨

إن لتوفر مادة البروتين أهمية خاصة عند الإصابة بالمرض، ولاسيما في دور النقاهة. ولكن يجب أن يتوفر إلى جانب هذا غذاء غني بالفيتامينات وفيه سعرات حرارية عالية وسهل الهضم أيضاً. فهذا هو ما يوصي به الأطباء على الدوام في أثناء فترة المرض لكي يكتسب المريض طاقة وقوة ولكي لا يواجه مشكلة في عملية الهضم.

ولقد أثبتت البحوث العلمية بأن جميع هذه الخصائص موجودة في الحبة السوداء، وهناك أمثلة واقعية لا تعد ولا تحصى في هذا الموضوع. وهذا يدل أن رسول الله ﷺ لا يرسل الكلام على عواهنه، فما تحدث عنه يتحقق واقعياً والنتائج دائماً تصدقه وتقف في صفه.

ط . **الذباب**

لنستمر في موضوعنا هذا بحديث وارد في صحيح البخاري حيث يقول رسول الله ﷺ: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء.»(١)

أولاً وقبل كل شيء لم يكن أحد يعرف في ذلك التاريخ أن الذباب يحمل الجراثيم. والذباب عندما يقع في سائل يرفع أحد جناحيه إلى أعلى على سبيل الاحتياط، أي لا يغمس جناحيه معاً في السائل، لكي يؤمن لنفسه فرصة الطيران إن خلص نفسه من الإناء، ولكن طعامنا أو شرابنا يكون قد تلوث بالجراثيم.

ما يوصى به في مثل هذا الموقف هو القيام بغمس الذباب كله ثم إخراجه وطرحه خارجاً، ذلك لأن في أحد جناحيه داء وهو الجراثيم، وفي الجناح الآخر

---

(١) **البخاري**، الطب، ٥٨، بدء الخلق، ١٧؛ **أبو داود**، الأطعمة، ٤٨

ما يزيل الأثر السيء للجناح الأول. فعندما تلمس ظهر الذباب وهو يحاول الخلاص بنفسه ينفجر الكيس المخزون فيه المادة المضادة للجراثيم، وهكذا يكون الذباب قد عقم ما لوثه الجناح الآخر بالجراثيم.[1]

يقول العلماء الذين قاموا بمراقبة هذه العملية وتحليلها علمياً بأنهم عندما ضغطوا على ظهر الذباب رأوا بالمجهر بأن قسماً من الجراثيم بدأت تتفرق يميناً وشمالا، وفي بحوث لاحقة علموا بأن هذه الجراثيم عناصر معقّمة، أي جراثيم للفتك بالجراثيم الأخرى.

يـ . النـزيف الداخلي

في رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حُبيش إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني امرأة أُستحاض فلا أَطهر. أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنما ذلك عِرْقٌ وليس بحيض فإذا أقبلتْ حيضتكِ فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي.»[2]

لقد علمنا بعد قرون عديدة من هذا الحديث الشريف أن مصدر دم الحيض هو من نزف داخلي. فكيف عرف رسول الله ﷺ هذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف إلا مؤخرا؟ عرفه طبعاً من ربه الذي علّمه مالم يكن يعلم وقام هو بتبليغنا. لذا فمرور كل هذه السنوات لم يزده إلا سمواً وعلواً في نظرنا. ورجال

---

(١) قد يقول أحدهم: لماذا لا نرمي بالسائل أو الطعام ولا نستعمله بدلا من هذه العملية؟ ونقول لهؤلاء: وما يدريك فلعل الحساء الذي وقع فيه الذباب هو حساء عائلة فقيرة لا تجد من الطعام غيره؟ أنقول لهذه العائلة أن تستغني عن طعامها أم نقدم لهم هذا الحل؟ (المترجم)

(٢) **البخاري**، الوضوء، ٦٣؛ **مسلم**، الحيض، ٦٢؛ **أبو داود**، الطهارة، ١٠٩، الطب، ١١

العلم يقولون اليوم بأن من يقول هذا الكلام لا يمكن أن يكون شخصاً عاديّاً؛ بل لابد أن يكون نبيّاً.

ك . **لا دواء في الخمر**

في رواية: أن طارق بن سُويد سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه أو كـــره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء.»[1]

لقد عقدت عدة مؤتمرات في مختلف أنحاء العالم ومنها تركيا حـــول الخمـــر والمسكرات تكلم فيها العلماء وأجمعوا على أن الخمر -وإن كان قطرة واحدة- ضار لجسم الإنسان ولعقله ولروحه وأنه يؤدي إلى تشوهات فيها، والرسول ﷺ يشخص هذا الأمر في هذا الموضوع ويقول بأن الخمر داء بنفسه وبذاته.

لـــ . **الختان**

يقول الرسول ﷺ بأن خمسة أمور هي من الفطرة أحدها الختان.[2]

فماذا يقول العلماء المعاصرون؟ ألم يتوصلوا إلى الشيء نفسه؟ ألا يقولـــون بأن غلاف القضيب محل لتجمع الجراثيم وسبب لإصابة القضيب بالـــسرطان، وأن السبيل الوحيد للتخلص من هذا هو إجراء الختان؟ وهكذا يظهـــر بـــأن الغرب يتصرف في هذه المسألة أفضل بكثير من بعض الحمقى عنـــدنا. فعـــدد المختونين الآن في إنكلترة وفي الولايات المتحدة الأمريكية يجاوز عدة ملايين.

---

(١) **البخاري**، اللباس، ٦٣، الاستئذان، ٥١؛ **مسلم**، الأشربة، ١٢؛ **النسائي**، ٩، ١١؛ **الترمذي**، الأدب، ١٤؛ **ابن ماجه**، الطب، ٢٧

(٢) **مسلم**، الطهارة، ٤٩، ٥٦؛ **أبو داود**، الطهارة، ٢٩

وهنا يتداعى إلى خاطري ما قاله شاهد هذا القـــرن: "إن أوروبـــا حاملـــة بالإسلام فستلد يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حاملة بأوروبا فستلد يوماً ما."[1]

لقد قيل هذا القول في أوائل هذا القرن، وقد تحقق شق واحد منه، والآن نحن ننتظر بفارغ الصبر تحقق الشق الآخر، فقد بدأ المخاض وزادت آلام الوضـــع... وفي القريب سنسمع إن شاء الله تعالى صرخات الوليد المملوءة بشراً وأملاً.

لقد توقفنا حتى الآن عند صـــدق رســـول الله ﷺ وإخلاصـــه، وصـــدق وإخلاص الأنبياء الآخرين. فكل نبي يمثل ذروة الصدق والإخلاص، لذا لم يجد الكذب مكاناً له قط في حياتهم، ولو كان عندهم أي انحراف -ولـــو كـــان قليلاً- لما استطاعوا دعوة الناس إلى الاستقامة وإلى الطريق القويم. هذا علمـــاً بأنهم ما أتوا وما أرسلوا إلا لكي يوصلوا البشرية إلى الصراط المستقيم المـــؤدي إلى الجنة، ووصف هذا الطريق وتعريفه لها.

أجل، فلو تجسدت الفضيلة والصدق لما ظهرت في غير الـــشمائل المـــنيرة والعطرة للأنبياء. ورأينا هنا أيضاً آلاف الأدلة التي تملأ ما بـــين الأزل والأبـــد حول صدق نبينا محمد ﷺ.

وقد حاولنا جمع هذه الأدلة والشواهد ضمن مجموعـــات ثـــلاث. وهـــذا اجتهاد خاص بنا وإلا فإنه يمكـــن تـــصنيف صـــدق الرســـول ﷺ إلى آلاف المجموعات ويسند إلى آلاف الأدلة والشواهد، ويعرض بأشكال أخرى مختلفة. وليس هناك من يستطيع الادّعاء بأنه يمكنه أن يوفي هذا الموضوع حقه بحيث لا تبقى هناك زيادة لمستزيد.

---

(١) «**صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٣٨٦

إن ما نؤمن به هو أن الأيام ستظهر صدقه على الدوام، وأن الناس في كل عهد سيكتشفون في كلامه ﷺ بُعداً آخر وبُعداً جديداً حول دلائل صدقه. وفي دار الآخرة سيعلم الجميع صدق رسول الله ﷺ، وسيرى الجميع صدق ما قاله حول ذاته ﷻ وحول أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، كل حسب قابليته الروحية، وستظهر أمامنا الجنة والحور العين والغلمان والجحيم وسائر الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ تماماً مثلما وصفها. وسيقول له الجميع: ''صدقت يا رسول الله''.

الفصل الثاني: الأمانة

الصفة الثانية من صفات الأنبياء هي الأمانة. وكلمة الأمانة مشتقة من "الإيمان". فالمؤمن هو الشخص الذي يحمل صفة الإيمان ويعطي انطباعاً بالأمن. فكما أن الأنبياء أشخاص في ذروة الإيمان، فكذلك هم في ذروة الأمانة، وهذه الصفة بارزة وواضحة أمام الجميع. والقرآن الكريم يشير إلى صفتهم هذه في آيات عدة منها:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء: ١٠٥-١٠٨). أي كان نوح عليه السلام يقول لقومه: ألا تتقون؟ إني لكم رسول أمين لا يتنزل إلى الخيانة. وهكذا ترد هنا من فم رسول كريم صفة الأمانة التي هي من صفات النبوة.

وكذلك: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٢٣-١٢٥).

والآية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٦٠-١٦٢).

ومن الممكن إيراد آيات أخرى في هذا الصدد. ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر.

إن اسم "المؤمن" هو من أسماء الله الحسنى، لذا فهو من الأسماء المهمة للمعتقدين بالله. ولكن لماذا كان "المؤمن" اسماً من الأسماء الحسنى لله تعالى؟

ذلك لأنه مصدر للثقة والاطمئنان، فهو الذي يمنحنا الثقة... أحياناً قطرة قطرة... وأحياناً مثل الشلال المنهمر. وهو الذي زين الأنبياء بصفة الأمن والأمان. فإن صفة الأمن والأمان والإيمان تربطنا بالأنبياء، وتربط الأنبياء بالله تعالى. وهذه الرابطة تقودنا إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق. فجميع هذه المعاني موجودة في الاشتقاق الجذري لكلمة "الأمانة". علماً بأن أهم ناحية في هذا الموضوع هو فهم هذه العلاقة.

وكما أن الأمانة من أهم صفات الأنبياء والمرسلين، ومن أهم صفات نبينا ﷺ، فهي أيضا من أهم صفات جبريل عليه السلام، فالقرآن يصفه لنا بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢١). أجل، فجبريل عليه السلام مطيع لله تعالى، ونظراً لطبيعة وظيفته فهو أمين، ومن ثم فإن هذا الكلام الذي يبعث الأمن والطمأنينة أنزله الله تعالى المؤمنُ بوساطة رسوله الأمين على قلب نبيه سيد الأمناء وأصفى المخلصين ليهب لأمته الخيرة الأمن ويجعلهم آمن الآمنين.

لقد عمت الجميعَ بركةُ القرآن الكريم، كل حسب درجته ومنزلته، وكان جبريل عليه السلام ضمن هؤلاء المستفيدين، فقد قال يوماً لرسول الله ﷺ: "كنت أخشى العاقبة، فأمنتُ لثناء الله عز وجل عليّ بقوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢٠-٢١)".[1]

(١) «**الشفاء**» للقاضي عياض ١/١٧

الأمانة عند رسولنا ﷺ

رسولنا ﷺ أمين قبل كل شيء، أمين على الرسالة التي بعثه الله تعالى بها، فلا يمكن تصور إخلاله بهذه الأمانة قيد شعرة. أمين مع جميع المخلوقات، فالكل يثق به ويطمئن إليه؛ لأنه أظهر للجميع مدى أمانته، فبعث الثقة وأرسى الأمن والاطمئنان إليه في نفوس الجميع. ثم علّمنا مدى أهمية الأمانة ومدى ضرورتها وأقنعنا بهذا الأمر. فتعالوا بنا نستعرض سويا هذه الأمور.

أ- الأمانة في تبليغ الرسالة

لقد اختار الله تعالى إنساناً أميناً لرسالته. وقد عاش هذا الرسول حياته كلها ضمن مشاعر هذه الأمانة، إلى درجة أنه كان عندما يتنزل عليه الوحي حريصاً على ألا تفوته كلمة واحدة من هذا الوحي ويخشى ذلك، فكان يكرر بسرعة ما سمعه من جبريل لكي يحفظه بشكل تام، وذلك قبل أن ينتهي جبريل من إلقاء الوحي عليه. وكان يبدي خشية وحرصاً وقلقاً في هذا الأمر إلى درجة أن القرآن الكريم نبّهه قائلاً: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٦-١٩).

لقد أُودع القرآنُ أمانة عنده، فكان يخشى ألا يكون أميناً لهذه الأمانة المقدسة خشية كبيرة. لذا، كان الله تعالى يطمئنه ويخبره بأنه أمين وسيبقى أميناً.

لقد عاش رسول الله ﷺ حياته كلها في خضم هذه العاطفة الملتهبة، فقد كان يدرك حق الإدراك مدى ثقل الأمانة المقدسة التي ألقيت على كاهله،

ويجتهد بكل ما وسعه من إخلاص وتفان أن يكون أميناً لها. فها نحن نـــراه في حجة الوداع وقد أحس بدنو رحيله يقول لأصحابه وهو يتذكر هذه الأمانـــة الكبيرة أنهم سيُسألون غداً عنه، لذا فقد سألهم: «ألا هـــل بلّغـــتُ؟ ألا هـــل بلّغتُ؟» فقال الحاضرون: نعم. فقال: «اللّهم اشهد.»[1]

أجل، فإن حفظ الأمانة يبدأ من الله ﷻ ماراً من عند جبريل عليه السلام ومستقراً عند رسول الله ﷺ ثم سارياً منه إلى أمته. وفي حجة الوداع طلب مـــن أمتـــه الشهادة مرة أخرى بأنه أبلغ الرسالة ثم رجع إلى الرفيق الأعلـــى بعـــد هـــذه الشهادة من أمته.

وردت في كتب السنة المعتبرة رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنـــها تتعلق بأمانة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة إذ قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنـــزل الله عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْـــتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْـــشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧).[2]

نـــزلت هذه الآية في حق زيد بن حارثة الذي أعتقه رسول الله ﷺ وتبناه ورباه ثم زوجه من بنت عمته زينب بنت جحش التي قبلت الزواج منه طاعـــة لرسول الله ﷺ، وتنفيذا لأوامره، فلم تكن لديها الرغبة في هذه الزيجة؛ ولهذا لم يحدث الوفاق بينهما؛ فأمر الله رسوله بطلاقها من زيد وأن يتزوجها لتكـــون

---

(١) **البخاري**، الحج، ١٣٢، المغازي، ٧٧؛ **مسلم**، الحج، ١٤٧؛ **أبو داود**، المناسك، ٥٦؛ **ابن ماجه**، المناسك، ٧٦، ٨٤

(٢) **البخاري**، التوحيد، ٢٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٨٨

ضمن زوجاته الطاهرات، فشق ذلك على رسول الله ﷺ حيث كانت العرب في تلك الأيام تنظر إلى الابن المتبنى نظرهم إلى الابن الحقيقي، وتعد زوجة الابن بالتبني بمثابة زوجة الابن الحقيقي. كما كانت أم زينب -عمة رسول الله ﷺ - قد عرضتها عليه من قبل فأبى؛ ولكن ما كان على النبي ﷺ إلا أن ينفذ ذلك الأمر لأنه صادر إليه من السماء، لذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية." ولكنه كان أميناً للوحي الذي كان ينزل عليه، فلم يكتم حرفاً واحداً منه.

وهناك حادثة أخرى وقعت في معركة بدر تبين مدى أمانته، فقد تم أسر بعض كفار قريش فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ حول أمرهم. فكان رأي أبي بكر ﷺ إطلاق سراحهم بعد أخذ الفدية منهم، أما عمر بن الخطاب ﷺ فكان من رأيه أن يقتلوا جميعاً وأن يقوم كل واحد من المسلمين بقتل قريبه بيده. ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر وأطلق سراح الأسرى بعد أخذ الفدية منهم. ولندع سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يروي هذه القصة بنفسه:

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدتُ بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرض عليّ أصحابُك من أخذهم الفداء. لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ

أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩). فأحلّ الله الغنيمة لهم.[١]

فلو كان هناك أي احتمال لقيام رسول الله بكتمان شيء من الوحي لكتم هذه الآية. ولكنه كان إنساناً أميناً على الوحي. وسنقوم فيما بعد بتناول هاتين الآيتين بتفصيل أكثر عند تناول موضوع عصمة الرسول ﷺ.

ب. **الأمين حيال الوجود كله**

وكما كان النبي ﷺ أميناً على الوحي الإلهي، فقد كان أمينا حيال الوجود كله، لأن هذه الأمانة كانت قد انغرست في أعماق قلبه وكيانه.

وللحادثة التالية التي ترويها صفية زوج النبي ﷺ مغزى كبير. عن الزهري قال: أخبرني علي بن الحسين ﷺ أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان. فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يَقلبها،[٢] حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مرّ رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: «على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حُيَيّ.» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما. فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ

(١) **مسلم**، الجهاد، ٥٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣١-٣٣

(٢) أي يرجعها إلى منزلها. (المترجم)

من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً.»[1]

فهذا الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم يستطيع أن يقـــذف في قلبه وفكره أشياء كثيرة. ولو كان هناك احتمال ضئيل بنسبة واحد من ألف أو واحد من المليون بورود سؤال على خاطرهما حول: من هي هذه المـــرأة الـــتي بجانب رسول الله؟ لوقعت حياتهما الأبدية في خطر شديد والعياذ بالله ولا نطفأ عندهم نور الإيمان. ولذلك نرى الرسول ﷺ -الذي هو مثال الرحمة والشفقة- يسرع للتدخل في الأمر فيظهر مدى أمانته هو، وينقذ في الوقت نفسه إيمـــان أصحابه وأفراد جماعته.

كان هذا هو مبلغ اهتمامه بالأمن والأمانة، ولا عجب في هذا، ألم يكـــن اسمه "الأمين" قبل بعثته ونبوته؟[2] ألم يكن ألدّ أعدائه يعترفون بأمانته؟ لقد كان أميناً إلى درجة لو أن أبا جهل وهو من ألد أعدائه سُئل أين يستطيع إيداع أثمن أمواله، بل حتى عرضه وشرفه لما تردد في القول: "عند الأمين."

أجل، لما خطر بباله شخص آخر غيره. فهكذا كان مقدار أمانته عليـــه أفضل الصلاة والتسليم.

كان أميناً إلى درجة أن امرأة دعت طفلها قائلة: ها تعال أُعطك، فقال لها: رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: أُعطيه تمراً. فقال لها رسول الله

---

(١) **البخاري**، الاعتكاف، ٨؛ **مسلم**، السلام، ٢٤؛ **أبو داود**، الصوم، ٧٩، الأدب، ٨١؛ **ابن ماجه**، الصيام، ٦٥

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٠٩/١

ﷺ: «أما إنكِ لو لم تعطيه شـــيئاً كُتبتْ عليكِ كِذبة.»[1]

ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعد الكذب من علامات النفـــاق، ولأجـــل ذلك كان يحاول إبعاد الناس عنه قدر استطاعته؛ لأن الكـــذب علامـــة مـــن علامات النفاق الثلاثة، والأخريان هما إخلاف الوعد وخيانة الأمانة.[2] فعلـــى قدر بُعد الرسول ﷺ من النفاق كان بُعده عن خيانة الأمانة.

و لم تكن روح الأمانة ومفهومها عنده مقتصراً عنده نحو الناس فحسب، بل نحو الوجود كله. إليكم حادثة يرويها عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة[3] معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تَفرُش،[4] فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ رُدّوا ولدها إليها.»[5] فكأن ممثلي الأمن والأمانة على الأرض لا يليق بهم مثل هذه التصرفات.

أما صحابته الغُرّ الميامين الذين تلقوا منه النور والضياء فقد كانوا أمناء أيضا، فهذا هو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ الذي كان والياً على الشام في زمن خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن سمع أن هرقل يعد جيشاً ضخماً لاسترداد الشام منه، و لم يكن مع أبي عبيدة حينئذ إلا نفر قليل لا يستطيع بهم الدفاع عن مدينة دمشق، إذ

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٤٤٧/٣؛ **أبو داود**، الأدب، ٨٠

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٢٤؛ **مسلم**، الإيمان، ١٠٧

(٣) **حُمّرة**: طائر صغير. (المترجم)

(٤) **تَفرُش**: ترفرف. (المترجم)

(٥) **أبو داود**، الجهاد، ١١٢، الأدب، ١٦٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٠٤/١

به يجمع سكان المدينة ويقول لهم بأنه جمع الجزية منهم على أساس أن يدافع عنهم، وهو الآن لا يستطيع أن يدافع عنهم أمام هرقل؛ لذا، فإنه يرد إليهم هذه الأموال لأنه لا يستطيع الاحتفاظ بها من غير وجه حق.

وهكذا ردت أموال الجزية لأصحابها، وأمام هذا المنظر الذي لا يُصدق هرع الرهبان والقسس إلى الكنائس والأديرة وتضرعوا إلى الله أن يبقي المسلمين وأن ينصرهم. وعندما ودعوا المسلمين قالوا لهم: سترجعون إن شاء الله وتنقذوننا من ظلم هرقل.[1]

إن أبا عبيدة بن الجرّاح ﷺ قد عاش أميناً ورباني‌اً إلى درجة أنه تربع على عرش قلوب النصارى. فإذا كان الغرب لا يسمعنا ولا يهتم بنا، ولا يعير التفاتة للأفراد الذين نرسلهم لأوروبا، فان الذنب ذنبنا، وينبع من سلبياتنا. ذلك لأن الثقة والأمن والأمانة هي أهم ما ينقصنا، فإذا استطعنا التحلي بهذه الفضائل مرة أخرى فإن الإنسانية ساعتها تكون قد عثرت على أمة يمكن الثقة بها. ونكون قد استرددنا موضعنا في التوازن الدولي وخطونا خطوة واسعة إلى الأمام.

من الممكن ملاحظة هذا الأمر -أي نشر الأمن والأمان- عند توسع العثمانيين وسيطرتهم على معظم أنحاء العالم. فعندما كان الجنود العثمانيون يمرون بالقرب من البساتين والحدائق وهم في طريقهم إلى الحرب، كانوا يعلقون أثمان الفواكه التي يقطفونها من هذه البساتين على أغصان الأشجار. فكانوا بمثل هذه التصرفات الإنسانية النبيلة يفتحون قلوب سكان البلاد قبل فتح هذه البلدان بحد السيف، وإلا ما كان باستطاعتهم فتح بلدان أوروبا، ولا إدامة

(١) «**عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة**» لشِبْلي النعماني ١/٢١٣-٢١٤

بقائهم فيها مع وجود كل هذا الحقد الصليبي المرعب. ولكنهم بقوا في البلقان وفي أوروبا أربعة قرون كاملة لأنهم كانوا بأمانة أبي عبيدة؛ لذا، استطاعوا أن يصلوا إلى أبواب فيينا بخسائر قليلة جدا، وكانوا طوال هذه القرون مثالاً للأمن وللطمأنينة في تلك البلدان، وأنا أعتقد بأن الدماء التي سكبت لحفظ الأمن في تركيا بعد تأسيس الجمهورية، لم تسكب طوال خمسة قرون من أجل استتباب الأمن بين الأقوام الأوروبية المختلفة.

أجل، فالإحصاءات تظهر لنا بأن عدد الشهداء الذين سقطوا طوال ستة قرون من العهد العثماني في جميع الحروب أقل من عدد الذين سقطوا في نصف القرن الأخير. ومن ثم فإن الزعم بأن الفاتحين العثمانيين كانوا يستندون إلى القوة القاهرة فقط زعم باطل. ومن جانب آخر إذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة وسائط النقل في تلك الأيام تبين لنا بشكل بديهي استحالة إدارة الدولة وفرض سيطرتها ونظامها على تلك المساحات الشاسعة بقوة السلاح وبقوة الجيش لا غير.

نعم! فهذا هو سر نجاحهم في جمع مختلف العناصر والقوميات تحت سقف واحد، وتحت إدارة دولة واحدة طوال تلك المدة دون أن تظهر هناك مشاكل جدية؛ لأنهم قد فتحوا قلوب السكان أولاً. وفتح القلوب والنفوذ إلى النفوس هو وظيفة الدعاة في عصرنا الحالي، وهو الأسلوب والطريقة التي يجب السير عليها.

ج. دعوة أمته إلى الأمن

وكما كان سيد المرسلين يحتفظ بالوحي الإلهي وبالرسالة الإلهية بكل أمانة، فإنه كان يدعو أمته إلى خُلُق الأمانة نفسها، ويوصي أفرادها أن يعيشوا أمناء بين الناس. وأي شكل من أشكال الخيانة مهما كان ضئيلاً لا يمكن السماح به

أو التفكير فيه، لذا حرّم أن يُغتاب ولو مؤمن واحد، إذ سرعان ما ينبه محدثه ويجنبه الإصابة بغبار الغيبة.

دخلت امرأة على عائشة رضي الله عنها فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ -أي إنها قصيرة- فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها.»[1] وقام النبي ﷺ بالتحذير نفسه في حادثة صاحبة ماعز بن مالك[2].[3]

وكان الرسول ﷺ يردد دائما هذا الدعاء ويوصي به أمته: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة.»[4]

وبقدر ما كان مهتما بمراعاة الأمانة كان اهتمامه بالتحذير من الوقوع في الخيانة لارتباطهما معاً. ويورد الرسول ﷺ خبراً مفزعاً عن الذين يقعون في هاوية الخيانة فيقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان.»[5]

لقد كانت روح النبي ﷺ مغلقة وقلبه موصداً أمام جميع المفاسد والشرور، ومفتوحين لكل خير حتى أصغره وأدقه، فعاش حياته للخير وفي جو من الأمن والطمأنينة، واطمأنت الإنسانية إليه ووثقت به وخاب وخسر الذين ناصبوه

---

(١) **أبو داود**، الأدب، ٣٥؛ **الترمذي**، القيامة، ٥١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٨٩/٦

(٢) عند ما تم رجم صاحبة ماعز بن مالك أصاب دمها وجه أحد الصحابة فشتمها، فحذره النبي ﷺ من ذلك، وقال إنها تابت توبة مقبولة عند الله. (المترجم)

(٣) **مسلم**، الحدود، ٢٣

(٤) **أبو داود**، الوتر، ٣٢؛ **النسائي**، الاستعاذة، ١٩، ٢٠؛ **ابن ماجه**، الأطعمة، ٥٣

(٥) **البخاري**، الجزية، ٢٢؛ **مسلم**، الجهاد، ٩؛ **أبو داود**، الجهاد، ١٥٠

العداء وأداروا له ظهورهم. أما هو فقد بسط جناح الرحمة على أمته ولبّى طلب كل من دقّ بابه.

وكما كان شخصاً أمينا، كان يشعر بنفس الأمن والطمأنينة والثقة بالله ﷻ، فكانت ثقته هذه بالله عروجاً لصفة الأمانة والأمن من النبي ﷺ وسمواً ورجوعاً إلى الله تعالى. فالأمانة الهابطة من الله تعالى إلى النبي ﷺ كانت تظهر وتتجلى في صفة الأمن عنده، وعندما يتقارب طرفا هذا القوس ويتحد يظهر الأمن العام.

لقد تميز كل نبي بالثقة بالله تعالى والتوكل عليه، فقد كانت هذه صفة من الصفات اللازمة لهم وخُلقاً من أخلاقهم السامية. ويوضح القرآن هذا الخلق عندهم في آيات عديدة. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ (يونس: ٧١).

كان نوح عليه السلام يثق في ربه ويعتمد عليه ويقول: إن كنتم تنفرون مني ومن دعوتي لكم وتبليغي أمر الله لكم فافعلوا ما شئتم، ذلك لأنني واثق بالله معتمد عليه. أنتم كثر وأنا فرد واحد، ولكن اعلموا أن الله لن يضيعني. فأجمعوا أمركم وتشاوروا وضعوا الخطط ضدي أنتم وكل شركائكم ومعاونيكم حتى لا يفوتكم شيء ولا تتحسروا على شيء فاتكم عمله، بل اعملوا ما وسعكم العمل ضدي ونفذوا كل خططكم فأنا في انتظار كل ما يأتي من قبلكم.

لقد كان يقول هذا لهم ويتحداهم، لأنه كان شديد الثقة بالله تعالى، وكان يعلم علم اليقين أن الله سوف يعصمه من الناس. ومع أننا لا نعلم عدد الأفراد

الذين ركبوا سفينته، إلا أننا نعلم أن كثيراً من الأنبياء –ومنهم إبـــراهيم عليه السلام– كان من ذريته ومن نسله، فالقرآن الكريم يقول إن إبراهيم عليه السلام مـــن شـــيعته ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإبرَاهِيم﴾ (الصافّات: ٨٣).

والموقف نفسه نراه عند النبي هود عليه السلام: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُـــشْرِكُونَ ۞ مِـــن دُونِـــهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُون ۞ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَا مِـــن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

ويشرح القرآن موقف إبراهيم عليه السلام، موقف التسليم المطلق لله فيقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

أجل، كان إبراهيم والذين آمنوا معه يرفعون رايـــة العـــصيان ويتحـــدون الكفار قائلين لهم: إننا بعيدون من كل ما تعبدون من دون الله بُعـــدا كـــبيرا، فنحن ننكركم وننكر كل طواغيتكم، وقد بدت بيننا وبينكم العداوة وتوسعت حتى تؤمنوا بالله.

وهذه العداوة بين المؤمنين وغير المـــؤمنين بـــدأت منـــذ عهـــد آدم عليه السلام وتواصلت إلى يومنا الحالي. فالإيمان ضد الكفر، والكفر عدو للإيمان، فلا يمكن أن يجتمعا معاً أو يستقرا في مكان واحد، لأن الكفر سيسعى للقـــضاء علـــى الإيمان، فكما أن الخفافيش لا تستطيع العيش في النور، فكذلك الكفار يضيقون

ذرعاً بنور الإيمان ونور النبوة. فكان أتباع إبراهيم عليه السلام من المؤمنين يقولون للكفار إنه مالم تؤمنوا بالله وتعتمدوا عليه وتتوكلوا فإن العداوة ستبقى فيما بيننا ولن تهدأ.

ذلك لأنه يوجد انحراف وسقم في ماهية الكفر، والكافر ينظر إلى كل الأشياء نظرة عداء. أما المؤمن فإنه يضم في جوانحه مشاعر الإنسانية والمروءة، وهو ينظر إلى الكون كمهد للأخوة، لذا فهو يبحث مع الجميع نقاط الالتقاء والحوار، بينما يجد الكافر لذة ونشوة في التحرش والتشاجر مع الجميع. وعندما يؤمن الجميع بالله تعالى يتأسس سلام عام وشامل. أما توقع مثل هذا السلام من الكافر ومن الكفر فهو غفلة وتفكير سطحي، ذلك لأن الكفر ليس لديه ما يعطيه للإنسانية غير الإيقاع بين الأمم وإضرام العداوة بينها.

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك حوار بالمعنى الحقيقي بين الإيمان والكفر، أما ما قاله إبراهيم لأبيه فقد عده القرآن الكريم استثناء. رغم أن ما قاله لم يكن إلا عبارة عن أمنية نبعت من شفقته ورأفته الواسعة، هذا مع العلم أنه أوضح بأنه لا يملك لأبيه عند الله شيئاً. وعندما قال: ﴿رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤) كان يعبر عن ثقته بالله واعتماده وتوكله عليه وحده.

ولو تم تدقيق حياة جميع الأنبياء لبرزت صفة ثقتهم واعتمادهم وتوكلهم على الله بروزاً واضحا. وتوكلهم على الله ليس مثل توكل عامة الناس أو مثل توكل أي فرد من الأفراد. هكذا كان توكلهم... إذن، فما بالك بتوكل وثقة سيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم..؟

لقد علمه الله تعالى أن يقول "حسبي الله" ومنذ ذلك الحين قضى حياته مطمئناً معتمداً على الله واثقاً به ومتوكلاً عليه. تأملوا مدى اعتماده على الله وتوكله عليه أن رجلاً بشجاعة علي بن أبي طالب ﷺ يقول عنه: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً."[1]

د. التوكل المذهل

عندما هاجر كان بيته محاطاً من جميع جوانبه بأناس مصممين على قتله أشد تصميم، فتلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَينِ أَيدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلفِهِمْ سَدّاً﴾ (يس: ٩) ونثر عليهم ملء كفه تراباً ثم خرج من بينهم بكل اطمئنان ودون أن يبدي أي قلق[2] لقد كان محتفظاً برباطة جأشه وشجاعة قلبه، ثم توجه نحو غار ثور... هذا الغار الموجود على قمة جبل يصعب ارتقاؤه حتى على الشباب، ولكنه ارتقى ذروة هذا الجبل وهو في الثالثة والخمسين من عمره. لقد كانت حياته عبارة عن سلسلة من المشاق والآلام وهذه المشقة آخرها. كأنما كان يستجيب لدعوة الغار له ويشرفه بالبقاء فيه ضيفاً عدة أيام.

ثم وصل مشركو مكة إلى باب الغار... ولم تبق هناك سوى مسافة متر واحد أو أقل، عندئذ قلق أبو بكر ﷺ واضطرب واصفر وجهه، ذلك لأنه كان يعد رسول الله ﷺ أمانة لديه، فماذا لو لم تصل هذه الأمانة إلى مكانها؟ أما رسول الله ﷺ فلم يتغير شيء في سحنته الباسمة... لقد كان رجلا آمنا

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٨٦/١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٢٧/٢

مطمئنا، وكان يطمئن أبا بكر ﷺ ويقول له: «يا أبا بكر! لا تخـــف، إن الله معنا» ثم يقول له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»[1]

وها هو في غزوة حُنين التي بدا وكأن الجيش الإسلامي يتشتت ويتفـــرق ذات اليمين وذات الشمال، وأيقن الجميع أن نهاية المعركة ستكون هزيمة منكرة للمسلمين. إذ بالنبي ﷺ يسوق جواده -الذي كان العبـــاس ﷺ يحـــاول أن يوقفه- نحو صفوف الأعداء وهو يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.»[2]

وكانت شجاعته هذه هي التي أدت إلى عودة تماسك الجيش الإسلامي في وقت قصير، فانقلبت هزيمته إلى نصر مبين.

وموقف آخر عندما كان النبي ﷺ نائماً تحت شجرة بعد رجوعه من غـــزوة ذات الرِّقاع إذ أقبل عليه أحد الكفار واسمه غَوْرَث بن الحارث فأخذ سيفه المعلق على الشجرة وقربه من عنق النبي ﷺ قائلاً له بنبرة استهزاء: من يمنعك مني؟ فلم يضطرب الرسول ﷺ أبدا لأنه كان واثقاً بالله تعالى، لذا، أجابه: «الله» فبـــهت الكافر واضطرب ووقع السيف من يده فالتقطه النبي ﷺ وقال له: «والآن مـــن يمنعك مني؟» فأخذ الكافر يهتزّ من خوفه كريشة في مهب الريح. وهنـــا أقبـــل المسلمون الذين سمعوا صوت النبي ﷺ، فذهلوا مما رأوا وعندما علموا ما جـــرى زاد إيمانهم بالله. أما غَوْرَث فقد أمنه النبي ﷺ وأطلق سراحه دون عقاب.[3]

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٩) ٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/١

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٥٢؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٨

(٣) **البخاري**، المغازي، ٣١، الجهاد، ٨٤؛ **مسلم**، الفضائل، ١٣؛ «**المستدرك**» للحاكم ٢٩/٣

يقول المفكر الغربي المعروف "جورج برنار شو (George Bernard Shaw)":

"إن محمداً شخص له جوانب سامية متعددة ومذهلة، وليس في الإمكان فهم هذا الإنسان اللغز حق الفهم، ولاسيما فهم أحد جوانبه وهو ثقته المطلقة بالله، فهذا سر لا يمكن فهمه."

كانت ثقته بالله لا يمكن قياسها ولا تقييمها بموازيننا العادية، لذا كانت مكانته ومنزلته عند الله منزلة سامية سمو ثقته وإيمانه بالله وتوكله عليه، لذا فلو دعا لانقلب الليل إلى نهار والظلام إلى نور والفحم إلى ماس.

إن رسول الله ﷺ هو أكثر شخص مدعاة للثقة من بين كل العالم، ومن ثم يجب أن تكون أمته أيضاً مدعاة للأمن وللثقة، تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء: ٥٨).

يشرح علي بن أبي طالب رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية فيقول: بعد أن تم فتح مكة أخذ رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة وفتح الكعبة بنفسه، ثم أعاد المفاتيح إلى عثمان، لأنه كان يراه أحق الناس بحمل هذه الأمانة، وهكذا كان، فبعد نزول هذه الآية سلّمت مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة مرة أخرى.(١)

غير أن حكم الآية حكم عام؛ لأن الرسول ﷺ عد تضييع الأمانة وعدم رعايتها علامة من علامات قيام الساعة إذ يقول لأعرابي سأله عن الساعة.

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٤٦٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٥٥

«فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة.» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّـد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.»[1]

أجل، إن الأمانة شيء خطير. وإعطاء الأمر لأهله يعد أمانة وهو من الأمور المهمة لحفظ النظام في العالم. وضياع الأمانة يأتي بالمعنى نفسه لاختلال النظام العام. ووجود مثل هذا العالم الذي ضاعت فيه الأمانة واختل فيه النظام أو انعدام وجوده يكون سيان.

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته. الإمام راع ومسؤول عن رعيته. والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[2]

إن ما يراد شرحه هنا ضمن هذا الإطار الشامل هو أن كل شخص مؤتمن عند الآخر، والوجود كله أمانة لدى الله ﷻ، والقرآن كان أمانة عند جبريل عليه السلام في البداية، ثم أمانة عند رسول الله ﷺ، ثم إن حقائق القرآن ونبوة محمد عليه السلام أمانة عند أمة الإسلام. والأمة بأجمعها أمانة لدى الله ﷻ.

إن العناصر التي تتألف منها الحياة وكذلك العناصر الضرورية لحياة المجتمع تعتبر كدوائر متداخلة بعضها في بعض، وأي فساد يعرض لإحدى هذه الدوائر مهما كان ضئيلاً يسري إلى الدوائر الأخرى بعد أن يتضاعف أثرها، ولا أعتقد أن أحداً يشك في هذا. فإذا كان هناك أي فساد في مستوى الفرد، ولم يتم

---

(١) **البخاري**، العلم، ٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٦١/٢

(٢) **البخاري**، الجمعة، ١١، الوصايا، ٩؛ **مسلم**، الإمارة، ٢٠؛ **أبو داود**، الإمارة، ١

علاج هذا الفساد بسرعة، فلا يشكن أحد في أن هذا الفساد سينقلب في وقت قصير إلى فساد مزمن وإلى سرطان لا يمكن علاجه. ولكي يتم سد الطريق أمام جميع أنواع المفاسد، فإن على كل دائرة القيام بإيفاء جميع حقوق الأمانة الموكولة لديها.

والحديث الشريف يشير إلى هذا الترابط الكامل. وفي إطار هذه الإشارة، لو كان أفراد الأمة جميعهم -بدءاً من الحارس وانتهاء برئيس الدولة- في وعي كامل في موضوع الأمانة لأصبح هذا المجتمع المثالي المكون من الأفراد الأمناء كمجتمع المدينة الفاضلة التي تخيلها بعض المفكرين.

ولأن الأمانة بهذه الأهمية الجامعة فقد قال الرسول ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له.»[1] فالشخص الذي لا يراعي الأمانة المودعة لديه لا يكون إيمانه كاملاً؛ لأن علاقة الإيمان بالأمانة هي أن كلا منهما سبب للآخر ونتيجة له. ومن ثم فمن الصعب أن تجد رعاية كاملة للأمانة عند غير المؤمنين.

أجل، فالإنسان ذو الإيمان الكامل يكون أميناً، فإن لم يكن أميناً فليس إيمانه كاملاً. وفي حديث آخر يعرّف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.»[2]

وهنا أود أن أذكر مرة ثانية حديثاً أوردته في مبحث صدق الرسول ﷺ، وذلك لكونه ذا علاقة بموضوع الأمانة. قال رسول الله ﷺ: «اِضْمَنُوا لي ستّاً

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١٣٥/٣

(٢) **الترمذي**، الإيمان، ١٢؛ **النسائي**، الإيمان، ٨؛ **ابن ماجه**، الفتن، ٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٠٦/٢، ٢١٠، ٣٧٩

من أنفسكم أَضمن لـــكـــم الجـــنـــة»:[1]

١- «اُصدقوا إذا حدثتم» أجل، فيجب أن يكون كلامكـــم وســـلوككم متصفاً بالصدق والاستقامة، وَلْتكونوا مستقيمين استقامة الرمح.

٢- «وأوفوا إذا وعدتم»: ومخالفة ذلك يكون علامة من علامات النفـــاق وقد تم شرح هذا الموضوع باختصار فيما سبق.

٣- «وأدّوا إذا اؤتمنتم»: فإن ائتمنك أحد على شيء لتوسمه فيك الأمانة، فلا تخيب ظنه فيك، بل لا تكذب حسن ظنه بك يوم القيامة.

٤- «واحفظوا فروجكم»: أي احفظوا أعراضكم، واحفظوا أعراض الناس مثلما تحافظون على أعراضكم (سنتناول هذا الموضوع في مبحـــث "العفـــة" بشكل مفصل).

٥- «وغضوا أبصاركم»: أي لا تمد عينك إلى ما لا تملـــك. فـــالنظر إلى الحرام يفسد القلب، لذا ورد في حديث قدسي: «إن النظر سهم مـــن ســـهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه.»[2]

٦- «وكفوا أيديكم»[3]: أي لا تمدن يدك بالإيذاء لأحد.

هذه هي الشروط التي يجب توفرها في الإنسان لكي يكون اميناً يطمئن إليـــه الناس. يعيش أميناً في الدنيا ويضمن آخرته. فمن يضمن تحقيق هذه الشروط ضمن له النبي ﷺ الجنة.

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢٣/٥

(٢) «**كنـــز العمال**» للهندي ٣٢٨/٥

(٣) «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢٣/٥

فلكي يعم الأمن والأمان في الدنيا، يجب أن تكون مقاليد أمور الدنيا في يد أناس أمناء. ولو قام العالم الإسلامي بحمل الأمانة المودعة لديه، وأصبح ممثلاً للأمن والأمان في العالم لتأسس التوازن والاستقرار في الدنيا، وإلا فإن حال العالم كله –وليس حال تركيا فقط– أليمة تنفطر لها القلوب.

هـ. يا براعم الأمل

ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم –بإذن الله– باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء و لم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبداً أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمـــة وتلعب دوراً بارزاً في تأسيس التوازن الدولي –حيث أننا مضطرون أن نكـــون كذلك– فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن.

الفصل الثالث: التبليغ

التبليغ هو الصفة الثالثة للأنبياء. وإذا أردتم أن تطلقوا على هذا اسم تبليغ وبيان حقائق الإسلام أو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فالنتيجة واحدة إذ تكونون قد أبنتم عن حقيقة كبيرة من الحقائق المتعلقة بالنبوة.

التبليغ هو الهدف من وجود كل نبي. فلولا مهمة التبليغ لكان إرسال الأنبياء عبثاً ودون معنى. لقد أظهر الله تعالى بأنبيائه عظيم كرمه وتجلت رحمانيته ورحيميته في حياة هؤلاء الأنبياء. وما كان في الإمكان انعكاس هذا الأمر على الناس الآخرين من دون التبليغ.

فكما يظهر الله رحمانيته بالشمس التي تبتسم وهي تشرق لنا كل صباح... هذه الشمس التي هي بمثابة مدفأة لمن يحتاج إلى الدفء، وموقد لما يحتاج إلى الطبخ، وريشة رسام يرسم بها أروع لوحات الجمال ملونةً بأبهى الألوان، فكذلك هم الأنبياء العظام، ولاسيما محمد ﷺ الذي كان أفضل أنموذج لتجلي الرحمانية والرحيمية للبشر والذي قال الله تعالى في حقه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

فلو لم يأت ويجدد دعوة الأنبياء السابقين لما تجلت علينا رحمة الله ﷻ، ولبقينا تائهين حيارى في صحراء الجهل والكفر والضلالة الموحشة.

فبينما كانت الإنسانية تتردى في مهاوي الجهل والتوحش إذا بها تتنسم أنفاس نبينا ﷺ التي تبعث الحياة في النفوس وتنقل لها أقوال الأنبياء السابقين...

عند ذلك أحست وكأن الدنيا تحولت إلى ربيع مزهر وإلى بساتين خضراء نضرة تفتحت فيها آلاف الورود والأزهار، وصدحت في أفنائها وأغصانها آلاف البلابل. ولولا هذا لجُنّت من الوحشة ومن الحيرة ومن الوحدة.

أجل، فمن نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟

مثل هذه الأسئلة المحيرة كادت تنخر أدمغتنا مثل مثقاب... كادت تحفر، وما كنا نملك أو نجد لها أجوبة شافية، وكان حتماً علينا أن نتحمل هذا الألم طوال أعمارنا. وعندما سيخطر على خيالنا منظرنا وقد تحولنا إلى عظام نخرة في القبر كنا سنرتجف من رعب بارد مظلم يستولي على نفوسنا... الرعب من العدم... هذا العدم الذي نقترب منه كل دقيقة... مثل هذا الرعب كان سيحول حياتنا إلى جحيم دائم لا راحة فيه.

جاء الأنبياء فعلمونا غاية الحياة وحقيقة الموت، فتعلمنا منهم أن مجيئنا إلى الدنيا مرتبط بغاية، وأن فراقنا للدنيا مبني على حكمة، وأن الموت ليس فناء ولا عدما، بل هو انتقال من مكان إلى مكان، وتسريح من مهمة ومن وظيفة معينة. أما القبر فهو صالة انتظار وباب مفتوح على عالم الآخرة. وعندما سمعنا هذا من الأنبياء تبددت وحشتنا وتحول كل شيء إلى أنس وانشراح، وزالت جميع المخاوف والشكوك وأسباب القلق من قلوبنا وعقولنا، وحل الأنس والمسرة محلها.

لقد أرسل الأنبياء إلينا بمثل هذه الرسائل، وكان قيامهم بتبليغها لنا هو غاية وجودهم. وإذا كنا نرى التبليغ واجباً يجب القيام به، فقد كان الأنبياء يقومون بالتبليغ كغاية وهدف يرون فيه سر حكمة مجيئهم إلى الدنيا، وكأن لسان

حالهم يردد: "ليس هناك غاية أخرى من مجيئنا إلى الدنيا، فالله تعالى أرسلنا للناس من أجل أن نزيح الظلام من بين أيديهم ومن خلفهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم لكي يستطيعوا المضي قُدما نحو الصراط المستقيم دون أي نحراف، فلا يستطيع الشيطان أن يتسلل إلى أرواحهم أو أن يحاول إغواءَهم في طريقهم هذا."

أجل، إننا نقوم بالتبليغ كمهمة ووظيفة، أما الأنبياء فيقومون به كغاية لوجودهم وهدف لحياتهم وسر لخلقهم.

أسس ثلاثة في التبليغ

مما لا شك فيه أن مجيء النبي بالرسالة وقيامه بتبليغ هذه الرسالة للآخرين أمر مختلف تماماً عما يفعله الآخرون. فالأنبياء أولاً متميزون في موضوع تلقي الرسالة، فهم لا يتشابهون مع غيرهم في هذا الموضوع. وهم أثناء قيامهم بمهمة التبليغ يعلموننا معنى التبليغ وكيف يجب أن يكون. وهذا يشكل بعدا آخر في موضوع تبليغهم. والآن دعونا نتناول هذا الموضوع بإرسائه على قواعد ثلاثة:

١) النظرة الشمولية

إن الأنبياء عندما يقومون بتبليغ رسالة الله يوفون حقّ هذه المهمة بأصولها وقواعدها وطرقها الصحيحة التامة كأهل علم واختصاص في هذا الموضوع. إذ يتناولون الإنسان من جميع جوانبه كلا شاملا وغير مجزأ، ويقدمون له رسالته في إطارها الكامل دون أي نقص. ومن ثم لا يبقى أي من العقل والمنطق والقلب والأحاسيس والشعور خارج أنوار الوحي ولا يترك أو يهمل أيّ من هذا.

ذلك لأن كل نبي بين يدي الوحي كالميت في يد المغسل، يقلبه الوحي ذات اليمين وذات الشمال ويوجهه أنى يريد فيتبع مشيئة الله وإرادته في أصغر الأمور وأدق التفاصيل، ويبدي حساسية فائقة تجاهها.

ومن ثم فإن أي تبليغ وأي دعوة لا تتوافق مع أسلوب تبليغ الأنبياء ودعوتهم لا تنجح في مهمة الإرشاد والدعوة. مثلا إن أهمل نصيب العقل فإن التبليغ لا يعطي النتيجة المرجوة. وإن أهملت المشاعر والأحاسيس سيؤدي أيضاً

إلى نفس النتيجة السلبية. ناهيك عن الذين يخرجون خارج نطاق الوحي، فهم لا يصلون أبداً إلى الهدف. ولتنظروا إلى حال جميع النظم البشرية التي سارت خارج الوحي الإلهي وإلى عاقبتها والمسافة التي قطعتها. فهذه هي الشيوعية التي جرت وراءها الجماهير البائسة الفقيرة والمخدوعة زمناً، والتي كانت حلم كثير من البلدان الفقيرة لم تستطع إنقاذ نفسها من السقوط والانهيار مع أنها مرت بكثير من عمليات التصحيح والتبديل والتجميل. برغم أن مؤسسي هذا النظام –والنظم الأخرى – كانوا قد قدموا أنفسهم كأنبياء كذبة وجالوا وصالوا بهذه الصفة. إن الذين يصرون على تطبيق النظم البشرية سيصلون إلى النتيجة نفسها. أجل، سيعلن كل منهم –عاجلاً أم آجلاً– بأنهم كانوا مخدوعين.

إن العقل والمنطق والعواطف تكون جنباً إلى جنب في دعوة النبي. فالنبي لا يفكر في استغلال عواطف الشعب للقيام بمظاهرات صاخبة في الشوارع، كما أنه ليس مفكراً نظرياً قابعاً في ركن منعزل يحرم الجماهير من الحركات والنشاطات العامة والإيجابية. وكما أن النبي لا يجعل من الجماهير كتلاً فوضوية تسد الشوارع، فهو أيضا لا يقف حائلا أمام نمو عواطف الجماهير ورقيها. إنه يودع رسالات ربه إلى قلوب الناس ويذكي فيهم روح العمل والنشاط ويسمو بهم إلى سماء الإنسانية ويرقى بهم إلى مصاف الملائكة. وعندما يشرح القرآن الكريم هذه المسألة يقول لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٨).

هذه السبيل هي سبيل الأنبياء وسبيل العقل والمنطق والحكمة أيضا. وهي في الوقت نفسه لا تهمل العواطف ولا القلب ولا الوجدان. فالكل يأخذ مكانه فيها، والأنبياء وأتباعهم يدعون الناس على بصيرة إلى الحق باتباع هذه السبيل.

٢) عدم انتظار الأجر

إن النبي لا ينتظر أجرا على تبليغه؛ فهو يقوم بدعوته لكونها وظيفته ومهمتـــه، فكل الأنبياء شعارهم: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (يونس: ٧٢ وهود: ٢٩).[١]

٣) ترك النتائج لله

وعندما يبلغ النبي دعوته لا يتدخل في نتائجها؛ لأنه يعلم أن وظيفته هـــي التبليغ. أما العاقبة وحسن القبول وتحقق النتائج فمردها إلى الله سبحانه تعالى.

وبعد ذكر هذه الأسس الثلاثة سنتناول ماهية التبليغ والـــدعوة بالنـــسبة للنبوة، والسبل والطرق والأساليب التي يجب على الدعاة في كل عهد الالتـــزام بها أثناء قيامهم بالدعوة. وكل ما نرجوه أن يوفقنا الله تعالى للقيـــام بوظيفـــة الدعوة كما يحب ويرضى. فالله تعالى هو الذي وهب قلوبنا الـــشوق للقيـــام بالدعوة وهو الذي بيده التوفيق إن شاء، فنحن نثق به ونعتمد عليه.

إن النبي لا يفكر إلا في دعوته كما قلنا. وكم من أنبياء جاهـــدوا طـــوال حياتهم ووقفوا أعمارهم كلها على دعوتهم وما آمن بهم أحد،[٢] ولكنهم بقوا مع ذلك مطمئنين لأنهم أدوا وظيفتهم كما يجب، فلم يـــصدر مـــن أحـــدهم اعتراض لحظة واحدة في حياتهم و لم يتفوه قط بمثل هذه الأسئلة:

---

(١) انظر هذه الآيات: ﴿وَيَا قَومِ لاَ أَسأَلُكُمْ عَلَيهِ مَالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (هود: ٢٩)، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين﴾ (الشعراء: ١٠٩)، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ: ٤٧).

(٢) **البخاري**، الرقاق، ٥٠؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٧٤؛ **الترمذي**، القيامة، ١٦

لماذا لم أوفق في دعوتي؟ لماذا لم يؤمن بي أحد؟ لماذا انتهى عملي إلى لا شيء؟ لماذا تتابع الفشل الواحد منه تلو الآخر؟ لقد كان كل نبي يفكر في دعوته فقط وكيف يؤديها؛ لذا، فهو ينظر إلى جميع الظروف بنظر الاعتبار ويؤدي مهمته في ضوئها. أما النجاح في دعوته فليس ضمن وظيفته. فالحكم في هذا يعود إلى الله تعالى وحده. وتوضح الآية الكريمة ذلك في خطابها لرسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦).

وبهذا المقياس فإن رسالة النبي تحمل صفة خاصة. فلو لم يؤمن بها أحد ما فتر النبي أبداً وما تردد أو قلق أو اضطرب، ولا سلك طريق اتهام الآخرين، بل استمر يؤدي وظيفته ومهمته. فلم يظهر الأنبياء أي فتور أو تراخ في الدعوة رغم تعرضهم لصنوف من الإهانة والازدراء. وهذا اللون من ألوان الدعوة صفة خاصة بالأنبياء وحدهم، ويستحيل أن يظهر كاملاً في غيرهم؛ لأننا نجد عند هذا الغير في العادة نوعاً من انكسار الخاطر والكدر، فمهما كان هؤلاء الدعاة ناضجين فإنهم لا يتخلصون من الرغبة في الحصول على نتيجة ما في دعوتهم. وعندما لا يحصلون على شيء يظهرون نوعاً من خيبة الأمل وانكسار الخاطر. والأنبياء وحدهم هم الذين لا يحملون مثل هذه الأحاسيس؛ لأن هذه صفة خاصة بهم.

انظروا مثلاً إلى رسول الله ﷺ وما أصابه في أُحُد من حوادث أليمة. فإنه مع هذا لم يتكدر خاطره ولم يصبه هم أو غم. لقد انكسرت سنه، ودخلت حلقات مغفره في وجهه، حتى أن أبا عبيدة انكسرت سنه وهو يحاول تخليص

وجه رسول الله ﷺ من حلقات المغفر.[1] ومع أن الدماء غطت وجهه الكريم فإنه اكتفى برفع يديه داعياً: «اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.»[2]

ومن ثم عندما اقتنع قومه بنبوته بذلوا أرواحهم في سبيله. وهذه الحادثة وغيرها من الحوادث المماثلة تبين مدى سعة صدر رسول الله ﷺ.

فما كان الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء والرسل يقابلون الأذى بالأذى، بل كانوا يتحملون الإيذاء في سبيل الله دون أي تذمر أو شكوى. وهذا نبي الله نوح عليه السلام يحكي القرآن عنه أنه قال لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦١).

لقد قال نوح عليه السلام هذا لقومه ردا عليهم عندما اتهموه بالانحراف والضلالة إذ قالوا له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الأعراف: ٦٠).

والاتهامات اليوم هي نفس الاتهامات السابقة... أنت منحرف... أنت رجعي... أنت تعيش في القرون المظلمة... الخ.

ويستطرد نوح في خطاب قومه قائلا لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٦٢).

أي يقول لهم إنني لست على ضلالة، بل إنني أريد أن أنصحكم وأخلصكم من الضلالات ومن الانحرافات التي تعيشون فيها، لأنني مرسل إليكم من رب العالمين نبياً ورحمة لكم أبلغكم رسالات ربي وأضيء لكم دروبكم، لأنني أعلم ما لا تعلمون.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٨٤-٨٥

(٢) «**الشفاء**» للقاضي عياض ١/١٠٥؛ **البخاري**، الأنبياء، ٥٤؛ **مسلم**، الجهاد، ١٠٥

ومع مرور عصور وعصور فإن الكفر هو الكفر لا يتغير ولا يتبدل. فنرى النبي هوداً عليه السلام يخاطب قومه قائلا: ﴿قَالَ يَا قَومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٧-٦٨).

فما من شيء قد تغير بالنسبة للأنبياء أو لأقوامهم. نفس الاتهامات ونفس الأجوبة... هي هي نفسها مع تغير في بعض الكلمات وبعض الجمل.

وبعد أن ذكرنا الأنبياء ضمن هذه القاعدة العامة لننقل الحديث إلى سيد الأنبياء ﷺ حيث يخاطبه الله قائلا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثّر: ١-٣).

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرتِيلاً﴾ (المزمل: ١-٤). أي يا أيها المتدثر والمزمل في ثيابه، لقد مضى عهد النوم... فقم لنجدة السائرين في الظلام. قم وأنذر هذه الجماعات الضالة طريقها من عاقبة السير في هذا الطريق المعوج، ومن عاقبة الانحراف والضلالة. ثم كبر ربك تكبيرة تهتز منها الأرض والسماء لكي يسمع الجميع، الإنس منهم والجن كم هو كبير ربك.

يا أيها الخليل المتدثر في الليل بردائه... إن مهمة شاقة مثل مهمة النبوة في انتظارك... قم واعبد ربك... فأنت في حاجة إلى أن تشحن من قبل ربك، لأن بانتظارك وظائف كبيرة عليك أن تنجزها. فكل ما يذكر لك يجب أن تبلغه للناس، ولا يمكنك القيام بمثل هذه المهمة الصعبة إلاّ بمعونة من ربك، ولا تتم هذه إلا بالعبودية له.

لقد أعلن كل نبي كما فعل نبينا ﷺ أنه جاء للتبليغ دون أن ينتظر أجراً من

أحد، ودون أن يتعلق قلبه بأي شيء أو يرتبط بأي شخص أو يمد عينيه لأي متاع أو يفقد نقاء بصره وصفاء بصيرته. لقد استمر في مد الإنسانية بالوحي الإلهي. ولولا قيامهم بتبليغ الرسالات النورانية لبقيت الإنسانية في ظلام بهيم ولما كان هناك فرق يذكر بينهم وبين الأنعام.

وقَدَرُ ابن آدم متداخل مع بعثات الأنبياء تداخلاً كبيراً، فلا تسأل أي أمة عن بعض أفعالها إن لم يبعث فيهم نبي. ولكن إن جاءها نبي وعاندت في التصديق به و لم يصيخوا سمعهم له فلا شك في كونهم محاسبين، فالقرآن الكريم يعلن البيان الإلهي ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥).

وبيان آخر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص: ٥٩).

فالله تعالى أولا يرسل الأنبياء، فإن أصر الإنسان على الإنكار رغم قيام الأنبياء بأداء مهمة التبليغ، عند ذلك يستحق العذاب من قبل الله تعالى.

وهذا وارد في كل دور وفي كل عهد. فإذا كان الله تعالى معذباً بعض الناس الحاليين فهذا مرتبط بمدى قيام المؤمنين –أو عدم قيامهم– بمهمة التبليغ على وجهها الأتم. فمن استمر في عناده وتمرده رغم وصول التبليغ إليه فإنه يكون مستحقاً للعذاب.

ولهذا السبب قام الأنبياء باستخدام كل أساليب الدعوة وطرق التبليغ دون كلل ولا ملل. فنوح عليه السلام يقول بلسان القرآن: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَإِنِّي

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ۞ ثُمَّ إِنِي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ۞ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ (نوح: ٥-١٠). يقول النبي نوح عليه السلام: يا رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ودققت أبوابهم. فما زادهم دعوتي لهم إلا ابتعاداً عني وفراراً مني... تمردوا فلم يصيخوا سمعهم لي. وحتى لا يسمعوني اخترعوا طرقاً عديدة... فتارةً يسدون آذانهم، وتارة يغطون رؤوسهم بملابسهم ويمرون وكأنهم لا يرونني.

التبليغ عند رسولنا ﷺ

أ- أسس مهمة في دعوته ﷺ

إن هناك أسسا مهمة في الدعوة والتبليغ، وقد ذكرنا بعضا منها، والآن نسترجع ذكرها باختصار لنضيف إليها أخرى.

الأول: الفطنة في الدعوة والتبليغ، وتستطيع أن تسمي هذه الفطنة بـ"منطق النبوة".

الثاني: التمثيل الجيد للدعوة إذ يجب أن يعيش صاحب الدعوة دعوته في جميع مظاهر حياته. وقبل أن يدعو الآخرين إلى دعوته عليه أن يطبقها على نفسه ويعيش دعوته أولا.

الثالث: أن تكون النتيجة المبتغاة من الدعوة رضا الله تعالى وحده، فلا يجب أن تكون لدعوته غاية غير هذا ولو الجنة. وهذا يعني التضحية بجميع الفيوضات والمنافع المادية منها والمعنوية.

١) الفطنة الداخلية

هناك جانب الفطنة في دعوة رسول الله ﷺ. والفطنة هنا ليس مجرد منطق بارد. بل منطق يمتد من الظاهر إلى الباطن ومن الدنيا إلى الآخرة. فكما أن للإنسان جانباً منطقياً، فله كذلك جانب عاطفي. والذين يخاطبونه من جانبه العاطفي قد يفشلون عند وجود ثغرة في جانبه المنطقي. بينما كان الرسول ﷺ يخاطب الحواس والمنطق والحدس في آن واحد. فلا يهمل الأشياء المادية المرئية

عند تناوله للإنسان، بل يجعلها ممراً للنفوذ إلى روحه. وهو يستعمل العقل ويدعو إلى استعماله ويهتم باستعمال المنطق والمحاكمات العقلية ويخاطب الضمائر عن طريقها. فكل من سمع صوته في وجدانه وصل إلى الحقيقة أسرع ممن يخاطب الوجدان وحده. فالفلاسفة من أمثال "باسكال (Pascal)" و"برِغسون (Bergson)" وغيرهم من الذين أرادوا الوصول إلى الله عن طريق الحدس (Intuition) مكانهم وراء التلاميذ الذين رباهم رسول الله ﷺ بمراحل بعيدة برغم أن المفروض أن يكون هذا الميدان ميدانهم. أما في ساحة الفضيلة والخُلق العام فلا يمكن أن نضعهم حتى بجانب أقل مؤمن.

وكما لا يمكن الوصول إلى الرسول محمد ﷺ في أي ساحة وفي أي ميدان، فإننا نرى هذا الأمر سارياً في موضوع الفطنة أيضاً. فقد غلب خصومه بثاقب بصره، وجعلهم يستسلمون له. فمثلاً نراه يرفع أصبعه مشيراً إلى الأصنام وقائلاً: ماذا تأملون من هذه الأحجار والأخشاب والتراب..؟ وبعد أن يخاطب عقل محدِّثه يأخذ بيده ليقربه إلى القلب أيضاً بطريقة خارقة غير اعتيادية وأحياناً بمعجزة، ثم يجعله يتقدم خطوة أخرى وينصبغ باطمئنان الإيمان ويذوق حلاوته حتى يصبح شخصاً آخر هَمُّه الحياة الأخرى.

لنأخذ مثلاً السيرة الروحية لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال له ﷺ إنه لا يعلم كيف أن شخصاً عاقلاً مثله يبقى بعيداً عن الهداية، ولا يعلم ماذا ينتظر من الأحجار والأوثان.

فهو أولاً يمدح عمر بهذه الأقوال، ثم إنه يقول كلاماً يحترم المنطق؛ وبذلك أخذ عمر في راحة يده، ثم نفذ إلى قلب عمر ﷺ بأسلوبه الهادئ الذي يبعث

الأمن والطمأنينة والثقة، وفي المرحلة الثالثة استطاع بعبوديته العميقة أن يجعل عمر الذي كان جباراً في الجاهلية يجلس بين يديه جلسة تلميذ مؤدب أمام أستاذه الكبير.

نقدم مثالاً ملموساً قبل الانتقال إلى الأسس الأخرى:

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ. والصحابة لا يذكرون اسم هذا الشاب، ولكن إن قمنا بجمع الروايات وتوحيدها نعلم أنه جُليبيب ﷺ وقال له: ائْذَنْ لي يا رسول الله بالزنا. لننقل الرواية كاملة: عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً قال فجلس:

قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟»

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم.» قال: «أفتحبه لأختك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم.»

قال: فوضع يده عليه وقال: «اللّهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَـه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.[1]

لقد استطاع رسول الله ﷺ بهذا الحوار المنطقي مع الشاب أن يجعله بين راحتي يديه يوجهه الوجهة التي يريدها. ثم وضع يده على صدره داعياً «اللّهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه.» فأصبح جُليبيب بعد هذا الدعاء مثال العفة. و لم يرض أحد أن يزوج جليبيبا ابنته، لأن حياته الماضية كانت معروفة لديهم. وهنا تدخل رسول الله ﷺ وزوج جُليبيباً.[2] ثم استشهد رضي الله عنه في أول معركة اشترك فيها بعد زواجه. وعندما انتهت المعركة سأل رسول الله ﷺ.

«هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً وفلاناً. ثم قال «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً. ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال «ولكني أفقد جُليبيباً. فاطلبوه» فطلب في القتلى. فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتى النبيُّ ﷺ فوقف عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه.»[3]

نعم! لقد استطاع الرسول ﷺ بفطنته أن يخلص شابا على حافة الزنا من الآثام، ثم رفعه إلى مثل هذه المرتبة السامية في أقصر وقت ممكن. إن هذا لأمر تحتار له العقول!

هب لو أن علماء التربية وعلماء النفس جميعا اجتمعوا وذهبوا إلى شبه جزيرة

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٥٦-٢٥٧

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٤٢٢

(٣) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٣١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/١٣٦، ٤/٤٢٢، ٤٢٥

العرب هل يستطيعون تحقيق التربية والخلق الرفيع الذي حققه رسول الله ﷺ في مثل هذا الزمن القصير..؟ كلا! لن يستطيعوا ذلك. إنهم لن يفشلوا فقط في تحقيق تلك التربية العالية والخلق الرفيع، بل لن يستطيعوا تحقيق مبدإ واحد أو مبدأين فقط من منظومة هذه التربية... وهذا هو ما يشير إليه الواقع العملي.

ولقد عاش رسول الله ﷺ في عهد فشت فيه الأخلاق الذميمة من كل نوع حتى أصبحت طبيعة في النفوس، ولم يكتف رسول الله ﷺ باقتلاع هذه الأخلاق السيئة من النفوس بل زينها بأحلى الأخلاق وأجمل الفضائل، فلم تشاهد البشرية مثل هذه الأخلاق قط ولن تشاهد بعدهم أبداً. والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على هذا بما يحويه من آلاف الأمثلة. ولعل فشل الجهود المبذولة الآن لمكافحة بعض العادات السيئة يعد شاهدا آخر على ذلك. فعلى سبيل المثال تقوم الدول حالياً بتسخير كل أجهزتها لمكافحة عادة التدخين، ومن ثم نرى الوزارت تشمر عن سواعد الجد، ويقوم المئات من العلماء بعقد الندوات لهذا الغرض وتخرج المطابع سيلاً من الكتب في مضار التدخين وتعلق الدعايات والإعلانات والشعارات... الخ. ولكن ماذا كانت النتيجة..؟ لا شيء.

ولكن لنتأمل الجماعة التي قام رسول الله ﷺ بتربيتها وكيف كانت أقواله تجد طريقها السريع في التطبيق العملي. وإليكم مثالاً واحداً.

يقول أنس ﷺ: فإني لَقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بَلَغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال حُرِّمت الخمر. قالوا: أَهرِقْ هذه القِلال يا أنس. قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.[1]

(١) **البخاري**، المظالم، ٢١، تفسير سورة المائدة ١٠؛ **مسلم**، الأشربة، ٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢١٧/٣

نعم! لقد فعل كل هذا، والذين لا يرغبون أن يروا هذا نقول لهم ونحن نشير إلى شبه الجزيرة العربية: "إذا أردتم أن تفعلوا شيئا فاعملوا واحداً من المليون مما عمله رسول الله ﷺ هناك..." ولن يستطيعوا ذلك أبداً.

٢) تطبيق الدعوة على النفس أولاً

أحد الأساليب الديناميكية التي استعملها النبي ﷺ في دعوته، هو جعل طراز حياته مطابقاً تماماً للمقام الذي يمثله. وتمثيله الحق لِما كان يقوله ويدعو إليه كان صادقاً إلى درجة أن من يشاهده ويراه كان يؤمن بالله تعالى من غير حاجة إلى دليل آخر، حتى أن رؤيته مرة واحدة كانت كافية للإيمان بأنه رسول من عند الله.

يقول عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبئك بالخبر [1]

إن الذين آمنوا به ووهبوا قلوبهم له والذين خاطبوه بـ"يا رسول الله" كانوا هم الذين حكموا العالم وأداروه من بعده. فلم يكن نجاحه محصوراً في إيمان نفر قليل به. فمن بين هؤلاء الذين آمنوا به نجد أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ﷺ أجمعين، إذ كان كل واحد منهم شخصية كبيرة تستطيع إدارة العالم بأجمعه؛ فما كان أي من هؤلاء من ذلك الطراز الذي يمكن أن يسلم قياده بسهولة لكل من يظهر أمامه. فلو كان أمامهم أحد سوى رسول الله ﷺ ما كان أي منهم ليؤمن به أو يسلس قياده له. إن شخصا في مستوى علي بن أبي

(١) «**الرسول**» لسعيد حوى ١/١٩؛ وانظر لرواية أخرى الى: «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٣٠٧

طالب ﷺ الذي يقول: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً."[1] والذي وصل في إيمانه إلى مستوى "حق اليقين"، أقول إن إيمان مثل هذا الشخص بالنبي ﷺ يعد دليلاً قائماً بحد ذاته.

لقد كانت كل أحواله مؤثرة وساحرة بلغت أن العالم اليهودي عبد الله بن سلام ما إن رآه للمرة الأولى حتى قال: "فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب."[2]

أجل، لقد كانت رؤيته كافية للإيمان به. والذين أفنوا حياتهم كلها من أجل إيصال صوتهم وآرائهم للآخرين يعلمون مدى صعوبة هذا الأمر أكثر من غيرهم، أي الإيمان بهم من أول لقاء. لأن معظم هؤلاء يقضون حياتهم كلها في جهد متواصل فلا ينجحون إلا في جذب أشخاص بعدد أصابع اليدين. بينما انظروا إلى رسول الله ﷺ، فهل ترون مثيلاً له أو شخصاً آخر يتربع في قلوب ما يقارب مليار شخص؟ وهل هناك شخص آخر غيره يذكر اسمه خمس مرات في اليوم من فوق المآذن في كل أنحاء العالم..؟ إذن، فالإنسانية تحبه وتعلن هذا الحب كل يوم خمس مرات، هذا على الرغم من كل النظم والأشخاص العاملين ضده.

أجل، فعلى الرغم من كل شيء فما يزال الرسول محمد ﷺ متربعاً على عرش القلوب؛ لأنه طبق على نفسه أولاً ما دعا الناس إليه، وعاش مثالاً حياً

---

(١) «**الأسرار المرفوعة**» لعلي القاري ص١٩٣

(٢) **الترمذي**، القيامة، ٤٢؛ **ابن ماجه**، إقامة الصلاة، ١٧٤، الأطعمة، ١؛ **الدارمي**، الصلاة، ١٥٦، الاستئذان، ٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٦٣/٢-١٦٤

للمبادئ التي دعا إليها، لذا كانت كلماته تنفذ إلى أعماق الجماهير وتجد طريقها للتطبيق العملي.

لقد كان يمثل في نفسه أجمل أنموذج للعبودية لله عندما كان يدعو الناس إلى هذه العبودية. تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتصف مبيت رسول الله ﷺ عندها فتقول ثم قال: «ذريني أتعبَّد لربي.» قالت فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تَعَبَّدَ لربك. فقام إلى القربة فتوضأ و لم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض. ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذَنبَكَ ما تقدم منه وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزِلَ عليَّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).» ثم قال: «ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها.»[١]

كان يصلي حتى تتورم قدماه. وعندما ذكر له يوماً أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[٢] لقد فتحت أمامه أبواب الشكر فكان جهده من أجل ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسستُ[٣] ثم رجعت. فإذا هو راكع أو ساجد يقول

---

(١) «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ٢/١٦٤؛ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ٤/١٩٧

(٢) **البخاري**، التهجد، ٦؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٨١

(٣) **تحسست**: أي تطلبته. (المترجم)

«سبحانك وبحمدك لاَ إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي. إني لفي شأن[1] وإنك لفي شأن آخر.

وفي رواية أخرى قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو في المسجد[2] وهما منصوبتان وهو يقول: «اللّهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.»[3]

لو شاء لعاش عيشة رخية وهينة مثل عيشة الملوك. ولقد اقترحوا عليه في مكة مثل هذا العيش في مقابل التخلي عن دعوته، غير أنه فَضّل حياة الضنك والشدة على حياة الرفاهية والغِنى، وذلك في سبيل دعوته.[4] فَضَّلَ حياة العبد الرسول الذي يجوع فيتضرع أو يشبع فيشكر على حياة المَلِك الرسول.[5] لقد كان أسلوب حياته البسيطة الخشنة هو الذي ربط الناس به.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يعيش أيضاً حياة بسيطة جداً، غير أن ما شاهده من طراز حياة الرسول ﷺ جعل الدموع تملأ عينيه. يقول عمر ﷺ:

---

(١) **إني لفي شأن**: تعني أمر الغيرة. (المترجم)

(٢) أي في السجود. (المترجم)

(٣) **مسلم**، الصلاة، ٢٢١، ٢٢٢؛ **الترمذي**، الدعوات، ٧٥، ١١٢؛ **النسائي**، الطهارة، ١١٩، التطبيق، ٤٧؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٤٨، الوتر، ٥؛ **ابن ماجه**، إقامة الصلاة، ١١٧، الدعاء، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٩٦/١، ١١٨

(٤) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣١٣/١-٣١٤؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٨٠/٣

(٥) «**المسند**» للإمام أحمد ٢٣١/٢؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٩/٩-٢٠

وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حَشْوُها لِيفٌ وأنّ عند رجليه قَرَظاً[1] مصبوباً، وعند رأسه أَهَبٌ[2] معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسولُ الله. فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[3]

صحيح أن زمام الدنيا يجب أن يكون بأيدينا، وقد كان رسول الله ﷺ يدرك هذا أكثر من غيره، ولكنه كان يعيش حياته الشخصية بشكل بسيط جدّاً.. وفي الحقيقة إنه ما كان يعيش لنفسه بل لغيره. ألم يكن تمثيله لدعوته بهذه الكيفية من أكبر عوامل جذب الأرواح إليه؟

إن في حياة الرسول ﷺ وسلوكه وتصرفاته وطراز حياته دروساً قيمة للدعاة. أجل، فإن الشرط الأساسي للنفوذ إلى القلوب هو تطبيق الدعوة ومبادئها على النفس أولاً وقبل كل شيء كما فعل ذلك رسول الله ﷺ.

إذا أردت أن تشرح لأحدهم معنى مخافة الله والبكاء من خشيته، فعليك أولاً أن تقوم في الليل وتبلل سجادتك بالدموع. في نهار تلك الليلة وعندما تدعو الناس ستتعجب من مدى تأثير كلامك عليهم، وإلا ستتلقى صفعة من الآية الكريمة ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصفّ: ٢) فتلاقيك الخيبة في التأثير على الناس.

---

(١) **قَرَظاً**: ورق شجر يدبغ به. (المترجم)

(٢) **أَهَب**: جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ. (المترجم)

(٣) **البخاري**، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ **مسلم**، الطلاق، ٣١

٣) عدم انتظار الأجر

كان عدم انتظار أي أجر دنيوي أو أخروي مقابل القيام بمهمة الدعوة والتبليغ كما فعل ذلك رسول الله ﷺ دليلاً آخر على نبوته. لأن هذا من أخلاق النبوة. والدعاة الحقيقيون الذين جاءوا وسيجيئون من بعده هم الذين يتخلقون بهذا الخلق. والقرآن الكريم يأمرنا باتباع أمثال هؤلاء الذين لا يسألون أجراً من أحد.(١)

لقد أنفق الرسول ﷺ ثروة السيدة خديجة رضي الله عنها في سبيل الدعوة، ولم يطلب من أحد لنفسه شيئاً. وهذا هو أبو بكر ﷺ من أقرب أصدقائه والذي كان يتهيأ لمرافقته في هجرته إلى المدينة، فأجر راحلة للنبي ﷺ، فأبى النبي ﷺ أن يركبها حتى يدفع ثمنها.(٢) في تلكم الظروف القاسية التي لا يفكر الإنسان فيها إلا في شيء واحد، هو مطاردة الأعداء له يفكر النبي ﷺ هكذا. ألا يدل ذلك على شدة تجرده وإخلاصه؟ إذ كيف يستطيع إنسان أن يفكر في مثل هذا الأمر الثانوي في ذلك الوقت العصيب. إن هذه الحادثة درس جيد لدعاة هذا العصر، ينبغي عليهم أن يعوها جيدا.

عن أبي هريرة ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة.» فبكيت

---

(١) انظر هذه الآية: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسأَلُكُم أَجراً وَهُم مُهتَدُونَ﴾ (يس: ٢١).

(٢) **البخاري**، البيوع، ٥٧، مناقب الأنصار، ٤٥، اللباس، ١٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٨/٦؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢١٨/٣

فقال: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب.»[1] كان الجوع ضجيعه الذي لم يتركه أبداً.

عن أبي هريرة ﷺ: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر. فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما»[2] أجل، الجوع... لقد أنفق ثلاثتهم كل ما يملكون في سبيل الله و لم يبق عندهم ما يسدون به رمقهم، وعندما عضهم الجوع لم يستطيعوا النوم وخرجوا إلى طرق المدينة.

هذه هي السواعد القوية التي حملت عبء الدعوة والتبليغ آنذاك. والدعوة الآن تحتاج إلى مثل هذه السواعد القوية لحملها ونشرها بين الناس.

وهذه هي ابنته فاطمة رضي الله عنها التي قال عنها رسول الله ﷺ «فاطمة بَضْعَة مني فمن أغضبها أغضبني»[3] والتي كانت تقوم بأعمال البيت من نقل الماء وطحن الحبوب بنفسها إذ لم تكن لها خادمة تعينها على ذلك، حتى بدا الإرهاق عليها ووضح أثره في يديها وعلى كتفيها. وكان زوجها علي بن طالب ﷺ يأسى لهذا الأمر غير أنه لم يكن يملك شيئا حياله. ودامت هذه الحال طويلا، غير أنها لم تشتك، ذلك لأنها كانت تحمل خلق والدها، كما كانت أشبه الناس بوالدها في قيامها وقعودها ومشيتها.[4]

---

(١) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٠٩/٧؛ «**كنز العمال**» للهندي ١٩٩/٧

(٢) **مسلم**، الأشربة، ١٤٠؛ **الترمذي**، الزهد، ٣٩

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١٢، ١٦؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٣-٩٤

(٤) **البخاري**، المناقب، ٢٥؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٨-٩٩

وعندما أصاب المسلمون في إحدى المعارك غنائم وأسرى، وجلبت هـذه الغنائم والأسرى إلى المدينة، ذهب كل من له حاجة إلى الرسول ﷺ فأعطاه ما تيسر له، فأشار علي ﷺ على فاطمة أن تذهب وتسأل النبي ﷺ أن يعطيها خادماً يعينها. ولنستمع إلى الحادثة من علي ﷺ وهو يروي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: «على مكانكما.» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري. وقال: «ألا أُعلِّمكما خيراً مما سألتماني، إذا أخذتما مضاجعكما تُكبّران ثلاثاً وثلاثين -وفي رواية أربعاً وثلاثين- وتُسبّحان ثلاثاً وثلاثين وتَحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم.»[1]

وها هو يرى يوماً عند فاطمة رضي الله عنها سلسلة من ذهب فيقول لها: «يا فاطمة! أيَغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار»، فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلاماً فأعتقته. فحُدّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»[2]

ومما تجدر ملاحظته في هذا الأساس الثالث أن رسول الله ﷺ إضافة إلى عدم انتظاره أي جزاء أو منفعة من أحد فإنه كان يتحمل مظاهر العدوان والأذى والخصومة من الآخرين. فكم من مرة حثَوْا على رأسه التراب فلم يسرع له

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٩

(٢) **النسائي**، الزينة، ٣٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٧٨/٥

سوى ابنته فاطمة. وكم من مرة دميت رجلاه من الأشواك التي كانوا يرمونها على طريقه. وفي إحدى المرات كان يصلي في الكعبة فَتَجَمَّع عليه بعض المشركين وأراد أحدهم أن يخنقه بردائه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.[1]

ولم تثن هذه الأفعال رسول الله ﷺ عن دعوته، لذا نراه يقول لابنته زينب وهي تبكي من أذى المشركين لوالدها: «يا بنية! لا تخشيْ على أبيكِ غيلةً ولا ذِلّة...»[2] ولم يضيعه الله ولم يذله، بل جعل حبه أبدياً في قلوب الملايين من أتباعه.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نورد هنا كلمات حول الدعوة والتبليغ. لقد حاولنا حتى الآن أن نشرح أن الدعوة هي غاية وجود الأنبياء ووجود نبينا، فما خلقوا إلا للدعوة والتبليغ. أما نحن فعند قيامنا بهذه المهمة مهمة الدعوة والتبليغ فإننا نقوم بها كوظيفة معينة ومهمة يجب تنفيذها ومسؤولية ينبغي أداؤها، ولكن الأنبياء يقومون بها لأنهم خلقوا لأجلها، فهي بذلك غاية وجودهم.

كما أننا عندما قمنا بتحليل هذا الموضوع حاولنا بيان كيفية أن الرسالة التي جاء بها رسول الله ﷺ مكتوب عليها "محمد رسول الله". كما قمنا ببيان الطرق والأساليب التي اتبعها في تبليغ رسالته هذه، وكيف أن هذه الأساليب دليل قائم بذاته حول نبوته ورسالته، وأشرنا إلى الطرق السليمة التي لا يتيه ولا يضل فيها الدعاة. فنحن على يقين تام بأنه إذا أريد النجاح الدائم الباقي فليس أمامنا

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٠٤/٢

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢١/٦

إلا اتباع الطرق والأساليب التي اتبعها النبي ﷺ. وقد أثبتت آلاف من الحوادث استحالة النجاح والتوفيق بالطرق الأخرى. لذا، فإننا نؤكد مرة أخرى بأن على الدعاة الذين يريدون أن يكونوا هداة ومرشدين للناس أن يتبعوا الرسول محمداً ﷺ. فهو المرشد الحقيقي. والطريق الذي خطه هو طريق الهداية الرشيدة، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ب_ كان ﷺ مفطوراً على التبليغ

لقد كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية. كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلباً طاهراً يبلّغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرِمْنا من الأكل والشرب أو عندما نحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ما كان يهتم بالأكل والشرب فقد كان يصوم أحياناً صوماً متواصلاً.(١) وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حيا.(٢) فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل. فكما تعيش الملائكة بالتسبيح كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة. وعندما يجد أمامه صدراً رحباً وطاهراً يفرح وينشط. والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣). وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف: ٦).

أجل، فلو رأى إنساناً متمرداً على الله لا يسجد له، لتغلغل الألم في أعماق نفسه، وكان هذا الإنسان مبعث حزن عميق له. فكل إنسان خلا قلبُه من الإيمان

---

(١) **البخاري**، الصوم، ٢٠؛ **مسلم**، الصيام، ٥٦

(٢) **البخاري**، الأطعمة، ٢٣، الرقاق، ١٧؛ **مسلم**، زهد، ٢٠، ٢٦

كان مصدر حزن عاصف في قلبه. وقد كان هذا مستقراً في أعمـــاق روحـــه، وعندما بعث نبياً ازداد عمقا.

ومع التسليم بكل أوامر الدين وتعليماته وسننه، نسمع هذا الجواب الملـــيء بالمعاني من أحد تلاميذ الرسول ﷺ ممن حمَلوا آلام الأمة الإسلامية وآمالهـــا في هذا العصر،[1] إذ قـــال لمن سأله عن ســـبب عدم زواجه:

"إنني من كثرة تفكيري وانشغالي بآلام الأمة الإسلامية ومشاكلها لم أجد متسعاً من الوقت ولا فرصة للتفكير في الزواج." أجل، فهذا هو حال الأنبيـــاء وورثة الأنبياء. وأنا أعتقد أن العالم بأسره ينتظر مثل هؤلاء الأشخاص الملتهبة قلوبهم بآلام الدعوة ومشاكلها.

وما دمنا وصلنا إلى هنا في هذا الموضوع، فإني أود ذكر مثال طالما كررته، لأن هذا المثال يكسب موضوعنا بُعدا آخر. فقد سكن أحد أصدقائنا الأطهار في إحدى الشقق في ألمانيا، واستطاع بروحه الطاهرة وبـــسلوكه النظيـــف – وبعون من الله تعالى– التأثير في نفوس أصحاب البيت وأصبح وسيلة لهدايتهم، فأسلم الأب أولاً ثم تبعته الزوجة ثم الأولاد وأصبح ذلك البيت قطعة من الجنة بالجو الذي أصبح سائداً فيه. وفي أحد الأيام بينما كان صاحب البيت جالساً مع هذا الصديق يتسامران إذ قال له صاحب البيت الذي بـــدأت أحاســـيس الهداية ومشاعرها تهبّ على قلبه فتملأه سعادة:

"يا صديقي..! إنني أحبك... أحبك إلى درجة أتمنى معهـــا أن أفـــتح قلـــبي وأضعك فيه، ذلك لأنك كنت وسيلة لهدايتي، وأكسبتني أنا وعائلتي حياة أبدية.

---

(١) المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. (المترجم)

ولكني غاضب منك في الوقت نفسه غضباً شديداً إلى درجة أنني أود لـــو أقـــوم فأضربك ضرباً مبرحا، وقد تسأل: لماذا؟ سأشرح لك الأمر، فقَبْل مجيئك بوقت قصير توفي والدي، مع أنه كان لائقاً لأن يكون مسلماً أكثر منا. كـــان يملـــك روحاً صافيةً وعاش حياة نظيفة، فلو أتيت إلى هنا قبل وفاتـــه لكنـــت وســـيلة لهدايته، لذا فإنني غاضب منك غضباً شديداً لتأخرك في المجيء."

إن هذا العتاب يبدو مثل أنين من أوروبا... بل من الدنيا كلـــها... وأنـــا أخشى جداً من أن أُجَرَّ من ناصيتي وأحاسب على هـــذا... ذلـــك لأنـــني لم أستطع تبليغ رسالة الإسلام لهم بالمستوى اللائق.

ج- **الحرص في تبليغ الدعوة**

كان الرسول ﷺ حريصاً أشد الحرص في دعوته، إذ كان لا يريد أن يبقى شخص واحد لم تصل إليه دعوة الحق والحقيقة، لذا كان شديد الحرص في تبليغ الناس ودعوتهم بالأسلوب الصحيح والمناسب. فانظروا مثلاً إليه وهو واقـــف على رأس عمه أبي طالب وهو على فراش الموت يعيش دقائقه الأخيرة.

لقد قام أبو طالب برعاية رسول الله ﷺ وحمايته مدة تقارب أربعين عاماً. وعندما قام النبي ﷺ بإعلان نبوته وجد مشركو مكة أبا طالب سدّاً بينهم وبينه لا يمكن اختراقه. وما كانوا يستطيعون الوصول إلى الرسول ﷺ إلا على جثـــة أبي طالب.

لقد رضي أبو طالب أن يتجرع كل الآلام ويتحمـــل جميـــع المـــصاعب والشدائد في سبيل حماية رسول الله ﷺ، وعلى رغم فقره وعمره المتقدم إلا أنه

قد اضطر لتحمل مشاق الحصار والمقاطعة التي أعلنها مشركو قريش والتي استمرت ثلاث سنوات.

والآن أبو طالب متمدد على فراش الموت ورسول الله ﷺ واقف على رأسه يقول له كلما سنحت الفرصة: «أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله» غير أن أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية حالوا دون هداية أبي طالب وخلاصه، وقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ و لم يزالا يكلماه حتى قال آخر ما كلَّمهم به: على ملة عبد المطلب... فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك.»[1] فنزلت آية منعته من الاستغفار له حيث ذكرت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغفِرُوا لِلْمُشرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُربَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣).

لقد كان أبو بكر ﷺ أكثر الناس معرفة بمدى رغبة الرسول ﷺ في هداية أبي طالب. فبعد فتح مكة جاء بوالده الشيخ أبي قُحافة إلى رسول الله ﷺ ليصافحه معلناً إسلامه، يقول ابن عباس ﷺ:

جاء أبو بكر بأبي قُحافة وهو شيخ قد عمي فقال رسول ﷺ: «ألاَ تركتَ الشيخَ حتى آتيه.» قال: "أردتُ أن يأجره الله، والذي بعثك بالحق لأنا كنتُ أشدَّ فرحاً بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك."[2]

---

(١) **البخاري**، الجنائز، ٨٠؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٤؛ **النسائي**، الجنائز، ١٠٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٥٣/٣

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ١١٦/٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٦٠/٣؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤٨/٤

وكما كان الرسول ﷺ يرغب في هداية عمه أبي طالب، فإنه كان يرغب أيضاً في هداية "وحشي" قاتل عمه حمزة ﷺ. والتاريخ حفظ لنا قصة هذا الموضوع.

١) دعوة وحشي ﷺ

عن ابن عباس بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام. فأرسل إليه: "يا محمد! كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة." فأنزل الله ﷻ: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان: ٧٠). فقال وحشي يا محمد هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلعلّي لا أقدر على هذا. فأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨). فقال وحشي: يا محمد، هذا أرى بعد مشيئة، فلا أدري يغفر لي أم لا، فهل غير هذا. فأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). قال وحشي: هذا نعم فأسلم.[1]

وأصبح ضمن الصحابة الكرام الذين ما نذكر اسم أحدهم إلا ونكتب بعده ﷺ. غير أنه كان قاتل حمزة ﷺ، و لم يكن في مقدوره ولا في مقدور أحد غيره أن ينسى هذا. صحيح أنه لن يحاسب على هذا يوم القيامة، ذلك لأنه

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٧/-١٠١

عندما ارتكب تلك الجريمة لم يكن مسلماً والإسلام يَجُبُّ ما قبلـــه، فذنوبـــه السابقة مغفورة له...[1] ومن ثم فقد كان محظوظاً من تلك الناحية... إلا أنـــه مع كل هذا كان قاتل حمزة ﷺ.

حمزة الذي كان بمثابة بطل خرافي يصيد الأسود ويبقر بطونها استسلم للـــنبي ﷺ وأعلن إسلامه، ولأنه رضع من نفس الثدي الذي رضع منه رســـول الله ﷺ، فقد احتلّ مرتبة أخ له من الرضاعة[2] وقد كان المسلمون يعيشون في خوف قبل إسلامه، فلما أسلم رنت جنبات جزيرة العرب بصوت المسلمين ودعوتهم. هـــذا هو حمزة الذي قتله "وحشي" في عهد جاهليته، إذ رماه في معركة أُحد بـــرمح فأصابه في صدره، فوقع على الأرض وهو يرسم بجسده حـــرف "لا..." فمنـــذ إسلامه وهو يقول "لا" لكل شي ما عدا الله تعالى. بعد قليل شاهده رســـول الله ﷺ وأحشاؤه مقطعة، فجلس عند رأسه وأجهش بالبكاء. بكى وذرف الـــدموع عليه. وها هو وحشي يمد يده الملطخة بدماء حمزة ﷺ إلى رسول الله ﷺ ويبايعه. ولتنظروا إلى مفهوم التبليغ والدعوة عند الرسول ﷺ فهو الآن يمسك بيد وحشي ويهنئه بإسلامه... بل هو الذي دعاه للإسلام.

وبعد إسلام وحشي وإيمانه قال رسول الله ﷺ «فهل تـــستطيع أن تغيّـــب وجهك عني» ذلك لأنه كلما رآه تذكر حمزة وتجددت آلامه فلا يـــستطيع أن يُظهِر له الرحمة الواجبة على النبي إظهارها لأصحابه فيكون نكد الحظ ويكون النبي ﷺ غير قائم بواجبه.

---

(١) انظر الحديث: «إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله.» («**المسند**» للإمام أحمد ١٩٩/٤)

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٣٥٣/١؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٥١/٢

ومثل أي صحابي آخر انقاد وحشي لتوصية الرسول ﷺ وأمره و لم يخالفه فحاول ألا يظهر أمامه وأن يكون بعيداً عنه. ولكنه في الوقت نفسه كان ينتظر كل دقيقة بل كل ثانية دعوة ثانية من رسول الله ﷺ... كان يقف وراء سارية وينظر إلى النبي ﷺ ويحاول أن يتصيد نظراته... ألا يأتي يوم يقول لي فيه: "آن لك أن تظهر أمامي."

وبينما كان ينتظر هذا اليوم السعيد فوجئ بالخبر المذهل... لقد توفي رسول الله ﷺ وفارقنا... كان خبراً صاعقاً له... إذن، فلم يبق هناك أمل أن يدعوه أحد.

مضت أيام وحشي بعد ذلك في التكفير عن خطاياه السابقة، إلى أن اشتعلت حرب اليمامة فأسرع والتحق بجيش خالد بن الوليد الذي أرسل إلى اليمامة. كانت هذه فرصة له يجب ألا يضيعها. فقد سبق له وأن تورط في إثم قتل أحد أبطال الإسلام الكبار، ومع أن ذنبه قد غفر له، إلا أن ضميره كان يضطرم بنار ذلك الإثم. والآن سنحت له فرصة كبيرة وهي قتل مسليمة الكذّاب أعدى أعداء الإسلام. أخذ وحشي معه ذلك الرمح الصديء الذي قتل به حمزة ﷺ واشترك في معركة اليمامة. استمرت الحرب عدة أيام... وكانت حرباً ضروساً.

وعندما بدت أمارات الهزيمة حاول مسليمة الكذاب الخروج والهروب من القلعة فلمحه أحد الحراس من الصحابة الكرام فصاح بوحشي: ها هو عدو الله.

وما إن سمع وحشي هذا حتى هز رمحه الصديء وأرسله إلى صدر مسيلمة الكذاب -كما كان قد أرسله من قبل إلى صدر حمزة ﷺ- فاخترق الرمح صدر مسليمة فهوى على الأرض من فوق فرسه صريعاً. ما إن رأى وحشي

هذا حتى انكب على الأرض يسجد شكراً لله.[1] وانهمرت الدموع من عينيه، لقدكان وكأنه يخاطب روح رسول الله ﷺ ويقول له: أأستطيع أن آتي الآن يا رسول الله..؟

نحن لا نعلم بماذا أجابه رسول الله، ولكن من المحتمل أن روحانية الرسول ﷺ التي حضرت إلى معركة اليمامة قد رقت لدعاء وحشي وانكساره وباركته لرجولته وشجاعته وقالت له: "تستطيع من الآن فصاعداً أن تظهر لي" هذا ما لا نعرفه، لأنها قضية بُعد آخر، ولكن غايتنا من سرد هذه الحادثة هي شرح ماهية الدعوة والتبليغ عند رسول الله ﷺ.

أجل، فنحن نرى هنا شفقته ورحمته لقاتل بطل كبير وحبيب أثير لديه مثل عمه حمزة الذي كان يجله مثل والده ويحبه مثل أخيه. ولكي يدعو وحشي إلى الإسلام جرب طرقاً عديدة، واستطاع أن يجعل من مثل هذا الشخص صحابياً. فلو لم تكن الدعوة والتبليغ جارية منه مجرى الدم وموجودة في فطرته، وقطعة من روحه أفكان من الممكن مشاهدة مثل هذا الإصرار في دعوة شخص مثل وحشي للإسلام؟ كلا... ولكن إصراره وحرصه يدلان على أن الدعوة والتبليغ عند النبي ﷺ صفة من صفاته، لذا فلم يكن من الممكن أن يسلك إلا هذا الدرب.

٢) دعوة عكرمة رضي الله عنه

كانت عداوة عكرمة للإسلام أكثر من عداوة وحشي. إذ كان عدواً للإسلام نفسه، أي كانت عداوته عن سابق إرادة وتصميم. والبيت الذي نشأ

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٢٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٠١/٣؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٦/٣-٧٧

فيه عكرمة كان بيت عداء للإسلام؛ وأفراده كلهم فطروا على عداوة الإسلام؛ فرب البيت كان أبو جهل، وقد سرى جهله إلى سائر أفراد البيت فأصبح مباءة للجهل وللظلام المعنوي، فمن أسلم من أفراده تعرض لأذى لا يوصف.

كان عكرمة في عدائه للإسلام وكأنه يتسابق مع والده، فما من أمر اشترك فيه والده ضد الإسلام إلا واشترك فيه عكرمة فقد أعماه الكفر والضلالة. ومع أن المسلمين فتحوا مكة وأسلم أهلها، إلا أن عكرمة بقي معانداً في خصومته للإسلام وقاتل المسلمين بسيفه، ثم هرب إلى اليمن.

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجتُه وبنتُ عمه امرأةً عاقلةً وكانت قد أسلمت، فذهبت إلى اليمن بدافع الوفاء لزوجها وأقنعته بالرجوع إلى بلده. ولكن عكرمة كان يستحي من مقابلة الرسول ﷺ، ذلك لأنه لم يدع خصومة إلا أبداها له، و لم يدع أذى إلا عمله. فإن كان المطلوب نثر الأشواك في طريقه كان هو في رأس القائمين بذلك. وإن كان المطلوب نثر التراب على رأسه ﷺ كان هو في مقدمة الناثرين. غير أن رسول الله ﷺ كما كان حريصاً على إسلام وحشي كان حريصاً على إسلام عكرمة. وعندما دخل عليه عكرمة رحب به النبي ﷺ قائلاً له: «مرحباً بالراكب المهاجر، مرحباً بالراكب المهاجر. مرحباً بالراكب المهاجر.» صحيح أن الهجرة انتهت بالمعنى الإسلامي بفتح مكة، إلا أن النبي ﷺ قال هذا إشارة إلى قدومه من بلد بعيد. كان هذا الترحيب كافياً لإذابة جليد العداوة في قلب عكرمة. وبعد أن نطق بالشهادتين قال للنبي ﷺ وهو مطأطئ الرأس حياء: "يا رسول الله! استغفر لي كل عداوة عاديتكها أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك."

فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء: «اللّهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو موكب أوضع فيه يريد أن يَصُدّ عن سبيلك.» فما أن سمع عكرمة هذا الدعاء حتى استولى عليه انفعال شديد... إذ ما كان يتوقع مثل هذا الاستقبال وهذا الترحيب. فقال للنبي ﷺ وهو في أوج الانفعال:

"أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضِعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله."

وبَرَّ عكرمة بوعده، وفي معركة اليرموك جاد بنفسه واستشهد فيها. اشترك عكرمة في معركة اليرموك مصاحباً معه زوجته وأطفاله. وعندما جرح جرحاً بليغاً حملوه إلى خيمة. فبدأت زوجته وأطفاله يبكون فقال عكرمة لزوجته: "لا تبك! لن أموت قبل أن أرى النصر" كانت هذه إحدى كراماته... بعد قليل دخل الخيمة عمه الحارث بن هشام قائلاً: "أبشروا! لقد نصرَنا الله تعالى" فحمد عكرمة الله تعالى وقال قبل أن يجود بنفسه: ﴿تَوَفَّنِي مُسلِماً وَأَلْحِقنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).[1]

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية الناس، فقد كان يمثل في الدعوة وفي التبليغ قمة لا يمكن بلوغها. إذ مد يده للآلاف ولمئات الآلاف ليقودهم إلى عالم النور والهداية، ولكنه لم يكن يعرف الاكتفاء، لذا نراه يمد يد الشفقة والرحمة حتى لألدّ أعدائه فيبرهن بذلك كيف أن صفة الدعوة والتبليغ لدى الأنبياء قمة سامقة وذروة شاهقة لا يمكن بلوغها.

---

(١) «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٤/٧٠-٧٣؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٤٩٦، ٤٩٧

د ـ همّ الدعوة يؤرّقه

ما عرفت عينا النبي ﷺ النوم المريح منذ إعلان نبوته، لأنه كان يشارك الإنسانية كلها آلامها ويشاطرها أحزانها، وهذا لا يصح إسناده إلا للنبي ﷺ الذي أنفق حياته كلها في الدعوة والتبليغ.

لقد كان يذهب في السنوات الأولى من مرحلة الدعوة في مكة من سوق إلى سوق ومن حارة إلى حارة، ليدعو الناس في الأسواق إلى الدين الحق. ويتعرض في هذا السبيل إلى صنوف الأذى، فقد يقذف بالحجارة أو يهال التراب على رأسه... وما كان يعبأ بذلك، بل كان يمضي قُدُماً في سبيل دعوته. وبينما كانت الملائكة تستحي من النظر إلى وجهه المبارك، كان مشركو مكة الغلاظ لا يجدون غضاضة بالسخرية منه. وبينما كانت الغيوم تحجب عن وجهه حرارة الشمس أحياناً كان الكفار يقابلونه بأحطّ أنواع الانتقاص.

فها هو عندما نزلت آية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) يجمع كافة أقربائه من أفخاذ وبطون القبائل ويقول لهم: «أرأيتم إنْ أخبرتكم أنّ خَيْلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيّ؟» قالو ما جرّبنا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.»

وعندما قال لهم هذا خيم الصمت على الجميع وبدوا وكأنهم قطع من حجارة، و لم يجيبوه بكلمة واحدة فانبرى أبو لهب يقول –ويا ليته ما تكلم– للنبي ﷺ: تباً لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟..[1] وانتهى الموقف على هذا وانصرف الجميع.

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (١١١) ١؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٥٥

وقد أنفقت السيدة خديجة رضي الله عنها معظم ثروتها في المآدب التي كان النبي ﷺ يصنعها ويدعو لها أشراف مكة لكي تتيسر له فرصة تبليغهم ودعوتهم إلى دين الحق... ولكنها لم تأت بنتيجة.

يصف علي بن أبي طالب ﷺ مجلساً من هذه المجالس فيقول ما معناه: دعا رسول الله ﷺ أشراف مكة إلى بيته فأكلوا الطعام. ثم بدأ رسول الله ﷺ بالحديث فقال إنه رسول الله، وإنهم أقرب الناس إليه. لذا، يجب أن يكونوا عوناً له. وفي ختام كلامه قال:

«فأيّكم يبايعني على أن يكون أخي وصَاحبي؟» قال: فلم يقم إليه أحد قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، فقال: «اِجْلِسْ»، قال: ثلاث مرّات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «اِجْلِسْ» حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدي.[1]

وهكذا مرت الأعوام ورسول الله ﷺ لا يعرف الكلل ولا الملل بل يستمر في دعوته وفي تبليغه، ولم يعره أقرباؤه أذناً صاغية أبداً. فبدأ بالبحث عمن يستجيب له من الناس البعداء عنه. غير أن العثور على أناس ذوي قلوب حية ليس بالشيء الهين. فقد رجموه بالحجارة في الطائف.[2] وطرد من أكثر الخيام التي زارها في الأسواق المقامة.[3] ولكن إصراره في الدعوة كان يجذبه إلى عالم المفاجآت. فقد ساقه القدر إلى العَقَبة حيث التقى ببعض الأشخاص الطاهرين. في العقبة الأولى تعرف على اثني عشر نفراً، وزاد عدد هؤلاء في العقبة الثانية في

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١/١٥٩

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٦٠

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٦٣

السنة الثانية إلى بضع وسبعين نفراً. فأبلغهم رسول الله ﷺ بعض الأمور، فإن كانوا مؤمنين به فعليهم الإيمان به ضمن هذه الشروط. وقبل هؤلاء كل ما قاله رسول الله ﷺ دون أي تردد. وهنا طلب العباس ﷺ منهم أن يفكروا ملياً قبل إعطاء القرار، إذ شرح لهم أن قبولهم هذا يعني أنهم يضعون أنفسهم في مواجهة العرب أجمع، فلم ينكص أحد على عقبيه، وبايعوا النبي ﷺ على أن يفدوه بأرواحهم، فأرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم.(١)

كان مصعب ﷺ الابنَ الوحيد لأغنى عائلة في مكة، وكان في السابعة عشر من عمره عندما أسلم. كان هذا الفتى من قبل إذا مر من أزقة مكة لوحت له الفتيات بمناديلهن من النوافذ، فقد كان أنيق الملبس.(٢) ولكنه ما إن دخل الإسلام حتى نبذته عائلته، وعندما ذهب إلى المدينة لم يكن يملك سوى ملابسه، وعاش هناك فقيراً، حتى أنه عند استشهاده في معركة أُحد -وقد تقطعت أوصاله- لم يجدوا ما يكفنونه به ﷺ.(٣)

ما إن وصل هذا التلميذ الجليل -تلميذ رسول الله ﷺ- إلى المدنية حتى شرع في الدعوة والتبليغ، فلم يبق في المدينة باب لم يطرقه. وكان إخلاصه للدعوة وتفانيه في سبيلها يجعل كلامه يدخل إلى القلوب ويأسر الأرواح. فيسرع مستمعه للدخول إلى الإسلام ونبذ الكفر. لقد أحدث مجيئه إلى يثرب موجة شديدة وهزة قوية، فكأنه كان نبع نور صاف يتسرب إلى القلوب فيملكها.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٣/٢

(٢) «**رجال حول الرسول**» لخالد محمد خالد ص٣٩

(٣) **البخاري**، الجنائز، ٢٨

أسكنه أسعد بن زُرَارَة ﷺ في بيته، ومع أن صلاة الجمعة لم تكن قد فرضت بعد، ولم يشرف النبي ﷺ يثرب بمجيئه بعد، إلا أن أسعد بن زُرَارَة ﷺ كان يجمع المؤمنين ويصلي بهم صلاة الجمعة.[1]

ولم يبق في يثرب رجل ذو شأن إلا أتى إلى بيته واستمع إلى مصعب ﷺ. لقد كان بعضهم يأتي وهو محنق، ولكنه يغادر البيت وهو قرير النفس. كان سعد بن معاذ من بين هؤلاء، فقد أقسم مغضباً أنه لن يسمح لأحد بإحداث الفتنة في يثرب بعدما حُدّث أن مصعباً يريد إحداث فتنة فيها. لذا شعر بأن عليه أن يقف في وجه هذه الفتنة ويخمدها. ودخل سعد إلى بيت مصعب ﷺ فرآه وهو يحدث بصوته العذب الرخيم. لم يملك نفسه سعد فقال كلاماً خشناً لمصعب ﷺ، فقال له ﷺ:

"أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عَزَلْنا عنك ما تكره."

فجلس سعد وقد سكن غضبه وبدأ يستمع إليه، وأحس بأنه ينتقل إلى عالم آخر لم يعهده من قبل... عالم ترفرف فيه أجنحة الملائكة. ولم يطل به الأمر فقد أسرع بنطق الشهادتين من أعماق قلبه ودخل في صفوف المسلمين.[2]

وكما هز إسلام عمر بن الخطاب ﷺ مكة، كذلك هز إسلام سعد بن معاذ يثرب، فقد انتشر هذا الخبر المذهل فيها وفي القبائل المجاورة لها.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٧٧

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٧٩

وهكذا فكما كان رسول الله ﷺ مشغولاً بنشر الدعوة، كان أصحابه المخلصون الصادقون يبذلون ما في طاقتهم لنشر الإسلام والحق في أحسن شكل وأجمل صورة. كان العالم كله في انتظار هؤلاء ليرفعوا المشاعل التي تضيء أرجاءه. ولم يكن إرسال مصعب إلى يثرب وطلحة إلى دومة الجندل والبراء وخالد –بعد سنوات– إلى اليمن إلا ثمرة الرغبة نفسها... رغبة تبليغ الدعوة ونشرها في العالم.

وإذا لم يوفق أحد هؤلاء الصحابة في دعوته في مكانه الذي أرسل إليه، كان رسول الله ﷺ يقوم بإرسال غيره ليحل محله. وكان هذا التغيير يأتي دائماً بنتائج إيجابية. فمثلاً عندما أرسل خالد بن الوليد إلى اليمن لم يوفق خالد هناك توفيقاً يذكر، فأرسل علي بن أبي طالب ﷺ إلى هناك ونقل خالد بن الوليد ﷺ إلى "نَجْران" حيث يوجد فيها النصارى.

يخبرنا البراء بن عازب عن هذه الحادثة فيقول: إن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أن يقول: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم فصلى بنا عليّ ثم صَفَّنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعا.[1]

أجل، لقد وفق علي بن أبي طالب ﷺ في اليمن، ذلك لكونه يملك تاريخاً طويلاً مع رسول الله ﷺ ولأنه والد الحسن والحسين ﷺ ورئيس السلسلة الذهبية لجميع الأقطاب والمقربين والأولياء والأصفياء الذين سيظهرون حتى يوم

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥/١٢١

القيامة. ولا يزال الحق والحقيقة حتى اليوم تحت أجنحة حمايتهم. فتح علي ﷺ قلوب أهل اليمن بكلماته التي كانت تذيب القلوب. وعندما تم فتح مكة جاء هؤلاء والتحقوا بالإسلام.[1]

هـ- الرسائل إلى رؤساء الدول

بينما كان رسول الله ﷺ يرسل أهل الكفاءات والقابليات إلى هنا وهناك للقيام بوظيفة إرشاد الناس إلى الإسلام كان يقوم بإرسال الرسائل إلى رؤساء وملوك الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، الذي هو الدين الحق. وكان هذا بُعدا آخر في مضمار الدعوة والتبليغ.

١) النجاشي

كان النجاشي حاكم الحبشة. لم يكن صحابياً، لأنه لم ير الرسول ﷺ، ولكنه كان شخصاً كبير القدر، أرسل إليه رسول الله ﷺ رسالة بيد عمرو بن أمية جاء فيها:

«من محمد رسول الله إلى النجاشي أَصْحَمَة ملك الحبشة:

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له.»[2]

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥/١٢٠

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/١٠٤

في خطاب رسول الله ﷺ للنجاشي نرى أنه سلم عليه "سلام عليك" إذن، فقد كان يأمل منه خيراً وكأنه كان يرى بعين الغيب أنه سيهتدي. ثم إن الأسلوب الذي استعمله الرسول ﷺ أسلوب رائع جدّاً، إذ نراه يتناول موضوع خطاب النجاشي من زاوية مريم عليها السلام لأنه يعرف مدى توقير النجاشي وحبه لها. ونحن أيضاً نوقر مريم عليها السلام لأنها ولدت نبياً كريماً وكانت مظهراً للإلهام الإلهي.

والشيء الذي يلفت النظر أن النجاشي كان نصرانيا، لذا عندما خاطبه الرسول ﷺ ذكر الآيات القرآنية المتعلقة بالمسيح عليه السلام. فكان هذا أسلم طريق وأفضله للدخول إلى قلب النجاشي... وهكذا كان.

عند ورود الرسالة نزل النجاشي من عرشه. أخذ الرسالة وقبلها ووضعها على رأسه، وبعد قراءتها أعلن إسلامه وأمر كاتبه بكتابة الجواب في هذه الرسالة:

"إلى محمد رسول الله من النجاشي: أشهد أنك رسول الله... فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئتَ أن آتيك فعلتُ. يا رسول الله، فإني أشهد أنما تقول حق."[1]

كان النجاشي مؤمناً واعياً، فقد قال لأحد خلصائه يوماً: "ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه."[2] بعد مرور فترة من الزمن قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو يدخل المسجد: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه.»[3]

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٠٥/٣

(٢) «**دلائل النبوة**» للبيهقي ٣٠٠/٢

(٣) **مسلم**، الجنائز، ٦٦-٦٧؛ **البخاري**، الجنائز، ٤، ٦٥

وقد اختلف الفقهاء في موضوع صلاة الغائب، فأصحاب المذاهب -عدا مذهب أبي حنيفة- يجوزون هذه الصلاة. ويقول علماء المذهب الحنفي بأن تابوت النجاشي حضر أمام رسول الله ﷺ بمعجزة إلهية وأنه صلى صلاة الحاضر. وهذا موضوع فقهي لا نريد الدخول في تفاصيله هنا.[1]

٢) هرقل

أرسل الرسول ﷺ رسالته الثانية إلى هرقل إمبراطور الروم بيد دِحْيَة الْكَلْبِي، وكانت الرسالة تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).»[2]

أثرت كلمات هذه الرسالة على هرقل، وكان أبو سفيان موجوداً آنذاك في بلده. وجرى الحوار التالي بينه وبين أبي سفيان:

- كيف نسبه فيكم؟

- هو فينا ذو نسب

---

(١) «**كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**» للجزيري ٥٢٢/١

(٢) **البخاري**، بدء الوحي، ٦؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٤

- فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

- لا

- فهل كان من آبائه من ملك؟

- لا

- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

- بل ضعفاؤهم.

- أيزيدون أم ينقصون؟

- بل يزيدون.

- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

- لا.

- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

- لا.

- فهل يغدر؟

- لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

هذا هو الحوار الذي جرى بين هرقل وبين أبي سفيان الذي لم يكن قد أسلم بعد، ولم يستطع أن يقول شيئاً ضد الرسول ﷺ سوى إبداء التردد في الجملة الأخيرة.

وكرر هرقل ذكر أجوبة أبي سفيان واعتبرها دليلاً على صدق نبوة الرسول ﷺ، ثم أخذ رأي صاحب له برومية، وكان عالماً مثله، فكان رأيه مثل ما رأى. وفي رواية أنه قال لأبي سفيان: "فإن كان ما تقول حقا

فسيملك موضع قدميّ هاتين" وقـــد حدث هـــذا فعلاً كما نعلم.[١]

وعندما وجد عظماء الروم ميل هرقل إلى الإسلام ثاروا وغضبوا، فلما رأى هرقل منهم ذلك أيس منهم وقال لهم: "إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ" فسجدوا له ورضوا عنه.[٢] أما صاحبه في رومية فقد أسلم وبايع النبي غيابياً.[٣]

٣) وآخرون

أرسل الرسول ﷺ رسائل أخرى إلى جهات مختلفة وإلى أشخاص آخرين، فكان منهم من اهتدى وقبل الإسلام ومنهم من تصرف باحترام تجاه رسول الله وإن لم يسلم، كالمقوقس عظيم القبط، إذ أرسل له الرسول ﷺ حاطب بن أبي بلتعة. ومع أن المقوقس لم يسلم إلا أنه أكرم وفادة حاطب طوال إقامته هنـــاك وأرسل معه هدايا عديدة للرسول ﷺ، وكانت أُمّنا مارية ضمن هذه الهـــدايا حيث ولدت له إبراهيم، وكان من ضمن هذه الهدايا بغلة[٤] بيـــضاء اسمهـــا "دُلْدُل" كانت الأولى التي يراها العرب.

أما كسرى فقد مز ق رسالة النبي ﷺ وألقاها علـــى الأرض، فمـــزق الله ملكه، و لم تلبث فارس أن تمزقت إرباً إرباً.[٥]

---

(١) **البخاري**، بدء الوحي، ٦؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٤

(٢) **البخاري**، بدء الوحي، ٦، تفسير سورة (٣) ٤

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٣٦/٨، ٢٣٧؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٢١٦/٢

(٤) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٤/٥

(٥) **البخاري**، العلم، ٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٤٣/١

قام رسول الله ﷺ بدعوة الحكام ورؤساء الدول ورؤساء مختلف القبائل، أي بتبليغ العالم كله بدعوته. كان كل يوم يمر يزداد نفوذه على القلوب، كان كأنه يملك جاذبية قدسية وسرية تجذب إليه -بخيوط سرية وغير مرئية- القلوب وتشرح له الصدور. وكل فرد أو مجتمع انجذب إليه أصبح يسمو إلى عالم النور. وبعد أن أقر مقعده في القلوب على هذا النحو أصبحت محاربته والاستمرار في عدائه وخصومته عملاً يائساً مثل محاولة طمس نور الشمس وحجبه بغربال.

ولم يلبث الجميع أن أدركوا هذا... أدركوا مدى عقم الوقوف في وجهه وصد دعوته، فألقوا أسلحتهم وطلبوا العفو والغفران منه.

و- صلح الحُديبية من زاوية الدعوة

يشكل صلح الحُديبية بُعداً آخر في مجال فرص الدعوة والتبليغ. فقبول رسول الله ﷺ الشروط القاسية للصلح قوبل في بداية الأمر من قبل بعض الصحابة أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه -الذي لا يشك أحد في قوة ارتباطه بالرسول ﷺ وتعلقه به- بردود فعل سلبية وباعتراض، وبدا لفترة قلقة أن فرصة الصلح ستضيع.

ولكن الذي حدث هو أن المسلمين استطاعوا في السنة التالية الدخول إلى مكة بكل حرية... هذا الدخول الذي أصبح موضوع حديث أهل مكة لسنة كاملة، مما فتح مغاليق كثير من القلوب للإسلام شيئاً فشيئا، فأسلم كثير من الشخصيات المهمة في مكة بمحض إرادتهم أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن

العاص.[1] وقد لعب دخول هؤلاء إلى الإسلام بمحض إرادتهم ودون أن ينخدش كبرياؤهم دوراً مهماً من زاوية الخدمات الكبرى التي أدّوها فيما بعد للإسلام.

كما أن إظهار الصحابة شدة تعلقهم برسول الله ﷺ في أثناء البيعة لم يغب عن أنظار الوفد المكيّ، مما يَسّر تفتح القلوب للإسلام.

ز ـ **الدعوة الفردية**

عندما كان رسول الله ﷺ في ذروة الصعود والانتصار لم يهمل العلاقات الفردية، بل أولاها اهتماماً كبيرا. فمع أنه كان يعلم أن أهل مكة جميعاً سيطلبون منه الصفح والغفران قريباً وسيستسلمون له إلا أنه مع هذا لم يهمل الترحيب الكبير لمقدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وإسلامهما بين يديه. فأرسل بعض أصحابه لاستقبال هذين الشخصين العبقريين. وعندما أقبل عليه خالد بن الوليد وسلم عليه بالنبوة ونطق بالشهادتين قال له رسول الله ﷺ:

«الحمد لله الذي هداك! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ أن لا يُسلِمك إلا إلى خَيْر.»[2]

كان كلام رسول الله هذا من أبلغ آيات الفخر لرجل في ذلك الموقف النفسي. ومن يدري ماذا فعلت هذه الكلمات بروح خالد ودورها في إشعال جذوة الإيمان في قلبه.

أما عمرو بن العاص فقد أمسك بيد رسول الله ﷺ لا يريد أن يدعها وهو

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٦٩/٤-٢٧٣

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٧٣/٤؛ «**كنز العمال**» للهندي ٣٧٤/١٣

يقول له: يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي. فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله والهجرة تَجُبّ ما كان قبلها.»[1]

أجل، كان رسول الله ﷺ قد أخذ بمقاليد القلوب، ولكنه كان يوظف هذا ويستخدمه في صالح الدعوة وفي صالح التبليغ. فأقبل عليه الناس يدخلون في دين الله أفواجا. ومن تلك الأمواج وصلتنا موجة في هذه الأيام. وأنا أومن بأن الرسالة المقدسة لرسولنا ﷺ ستبقى وستستمر حتى قيام الساعة.

وحسبما نقرأ في الصحف فإن آلافاً من الأوروبيين يسلمون، والدنيا بأجمعها مقبلة على الإسلام. أجل، إن أوروبا حامل بالإسلام وستلد يوماً ما، وأما العالم الإسلامي فهو في آلام المخاض وسيلد قريباً. ثم انظر إلى شرق العالم حيث كان الفكر المنافق والملحد متحكماً وسائداً؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على سياسة التذويب ومسخ الشخصية فإن البلدان الإسلامية فيها مثل تُرْكِسْتان وكازاخستان وأَذْرَبِيجان وأوزبكستان وداغستان وقرغيزستان لم تفقد شيئاً يذكر من روحها ومن فكرها، وهي مقبلة بتلهف على عالمها الروحي والفكري الخاص بها. وفي القريب سيرتفع الأذان المحمدي في كافة أطراف الأرض وسيقبل الناس أفواجاً أفواجاً على الإسلام، فلن يدع ممثلو دعوة النبي ﷺ أي بقعة من بقاع الدنيا دون إيصال صوت الدعوة إليها، وهم إذ يفعلون هذا يتخذون المحبة لهم أسلوبا والحنان صفة.

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٢٧١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/١٩٩

ح- **استحقاق رعاية الله وعنايته**

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنـزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

ما خاطب الله تعالى أي نبي من أنبيائه بمثل هذا الخطاب، فعند خطابه لأنبياءه السابقين كان يخاطبهم بأسمائهم المجردة. أما هذا الخطاب بصيغة التعظيم فهو خاص برسوله محمد ﷺ.

فالرسول هو الشخص الذي يحمل رسالة من الحق ﷻ، ويبلغ أخبار عالم الغيب إلى الناس. وخطاب الله تعالى له بهذه الصفة تشريف له من جهة، وتذكير لنا بسمو منزلته عنده من جهة أخرى. فهو يعلن شرف نبوته، والنبي ﷺ يبلغنا رسالة نبوته وهو سيظل تحت ظل هذا الشرف وهذه المرتبة الرفيعة. أي يقول لنا بأن النبي الذي يخاطبكم وتخاطبونه شخص -إن جاز التعبير- يوقّره الله تعالى ويحترمه فلا يخاطبه باسمه: "يا محمد... يا محمد..." بل يخاطبه بـ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.. أي يا أيها الذي يحيي القلوب والنفوس بالوحي الإلهي... ويا أيها النبي الذي يهرع لنجدة الإنسانية وإنقاذها... وبهذا فقد سما به الله تعالى إلى ذروة نورانية، وشرفه بالرسالة والنبوة وجعله أهلاً لأن يخاطبه مباشرة؛ لذا، نرى أن بعض المحققين يرون أن الله كلمه مباشرة في ليلة المعراج. فكما أن سائر الوحي تم من وراء حجب -وإن كان من قبل الله تعالى- كذلك فقد تم هذا في المعراج ولكن من دون حجاب.[1]

---

(١) انظر: **البخاري**، الصلاة، ١؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٥٩؛ «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ٤٢٤/٧

فهذا هو نبينا محمد المصطفى عليه الصلاة والتسليم، وهذه هي المرتبة التي وضعه فيها ربه وقال له: بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تجعل أي شيء عائقاً أمامك من خوف أو قلق أو أي مانع آخر كالجوع أو العطش أو حب الجاه والمنصب في الدنيا.

ونحن نشهد أن الرسول ﷺ لم يعقْه أي عائق بل قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة حق الأداء. لقد انفرج أمامه باب الرسالة، فقام بفتح الباب على مصراعيه بصورة لم يسبقه بها أحد من قبله. وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهم قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩) من هذه الزاوية، إذ أنه تخطى جميع الحدود حتى وصل إلى مرتبة يصفه فيها أمير الشعراء فيقول:

حتى بلغتَ سماء لا يُطار لها على جناح، ولا يُسعَى على قدم

وقيل: كل نبيٍّ عند رتبته ويا محمد هذا العرش فاستَلِم

وهذا يعني تجاوز عالم الإمكان وتخطيه. وبهذه المناسبة أتذكر "اوغست كومت (August Comte)" أحد مؤسسي المدرسة الوضعية والذي قضى حياته في معاداة الدين، لأنه كان يرى أن أي شيء لا يدخل ميدان التجربة العلمية فهو هراء وكلام لا معنى له. غير أن هناك حادثة متعلقة به ذكرت في أحد كتب التاريخ وهو كتاب "تاريخ مراد". فقد ذهب "كومت" إلى الأندلس، وعندما رأى الآثار والفنون الإسلامية الرائعة هناك ذهل وبقي مدة يتأملها بإعجاب كبير، ثم بدأ يسأل هناك بعض الأشخاص عن الإسلام. وعندما أخبروه أن محمداً ﷺ كان أمياً ذهل بل صعق و لم يصدق هذا القول. وذهب إلى روما وقابل البابا التاسع وسأله عن هذا الأمر مستحلفاً إياه أن يقول

له الصدق. وعندما أكّد له البابا صحة ما قيل له لم يملك نفسه إلا أن يقـــول: "إن محمداً ليس بإله... ولكنه ليس بشراً أيضاً." ألم يقل شاعرنا البوصيري:

فمَبْلَغُ العِلم فيه أنه بَشَرٌ وأنه خيُر خَلق الله كلِّهِمِ

أجل، كان إنساناً له أب وأم وله جانبه المادي، ولكن لا يمكن فهمـــه ولا إيضاحه من جانبه المادي أبداً. فهو طائر في سماء النبوة، ولكن حديثنا عنه يدور على الدوام عن البيضة التي خرج منها. بينما وصل في المعراج إلى موضع نعجز عن إدراك ماهيته، لأن هذا خارج الإدراك والشعور البشري.

إن التبليغ ضروري إلى درجة أن الله تعالى وظف له أحـــب خلقـــه إليـــه وأحاطه علما بمدى ضرورة القيام به وحذره من التقصير في أي جانب منه.

ومن ثم فإن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين ننتـــسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبداً إلا بدعوته وبأنفاسه ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه.

تم الجزء الثاني من سلسلة النور الخالد

ويليه الجزء الثالث وهو

"**عظمة الفطنة في نبوة محمد ﷺ** ".

فهرس

الباب الثالث: ٤
صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء..... ٤
الفصل الأول: الصدق..... ٤
الصدق عند رسولنا ﷺ ٨
أ- الأمين قبل الرسالة ٨
ب- الموصي بالصدق دائماً..... ١١
ج- أقواله علامة صدقه ١٩
أولاً: أخبار الغيب المتعلقة بزمانه ٢٤
ثانياً: الأخبار المتعلقة بالمستقبل ٢٧
ثالثاً: الأخبار المتعلقة بالعلوم المختلفة..... ٥٨
الفصل الثاني: الأمانة ٧٩
الأمانة عند رسولنا ﷺ ٨١
أ٠ الأمانة في تبليغ الرسالة..... ٨١
ب٠ الأمين حيال الوجود كله ٨٤

ج. دعوة أمته إلى الأمن.....٨٨
د. التوكل المذهل.....٩٣
هـ. يا براعم الأمل ٩٩
الفصل الثالث: التبليغ ١٠١
أسس ثلاثة في التبليغ..... ١٠٤
١) النظرة الشمولية ١٠٤
٢) عدم انتظار الأجر ١٠٦
٣) ترك النتائج لله..... ١٠٦
التبليغ عند رسولنا ﷺ..... ١١٢
أـ أسس مهمة في دعوته ﷺ ١١٢
١) الفطنة الداخلية ١١٢
٢) تطبيق الدعوة على النفس أولاً ١١٧
٣) عدم انتظار الأجر ١٢٢
بـ كان ﷺ مفطوراً على التبليغ..... ١٢٦
جـ الحرص في تبليغ الدعوة ١٢٨
١) دعوة وحشي رضي الله عنه ١٣٠
٢) دعوة عكرمة رضي الله عنه..... ١٣٣
دـ همّ الدعوة يؤرِّقه..... ١٣٦
هـ الرسائل إلى رؤساء الدول ١٤١
١) النجاشي..... ١٤١

٢) هرقل..... ١٤٣
٣) وآخرون..... ١٤٥
و_ صلح الحُديبية من زاوية الدعوة..... ١٤٦
ز_ الدعوة الفردية..... ١٤٧
ح_ استحقاق رعاية الله وعنايته ١٤٩

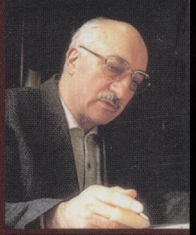

من صفات الأنبياء

إن الأنبياء والرسل رغم الفروق واختلاف الدرجات فيما بينهم يشتركون في شيء واحد، وهو أنهم مختارون مصطفون تجلت عليهم ذات الله سبحانه وتعالى فرباهم وأدبهم وفضلهم على العالمين وجعل قلوبهم مقتصرة عليه لا تحوم حول أحد غيره.

فالصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها. فكل ما قاله الأنبياء صدق خالص، ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة. لقد عاش النبي ﷺ صادقا مستقيما مثل شعاع الضوء، وأوصى بالصدق بعد أن حققه في نفسه فبلغ به ذروة ليس وراءها سوى الصدق الإلهي.

ورسولنا ﷺ أمين قبل كل شيء. أمين على الرسالة التي بعثه الله بها، فلا يمكن تصور إخلاله بهذه الأمانة قيد شعرة. أمين مع جميع المخلوقات، فالكل يثق به ويطمئن إليه، لأنه أثبت للجميع مدى أمانته فبعث الثقة وأرسى الأمن والاطمئنان في النفوس ثم علّمنا مدى أهمية الأمانة ومدى ضرورتها.

أما التبليغ فهو الغاية من وجود كل نبي. فلولا مهمة التبليغ لكان إرسال الأنبياء عبثا ودون معنى. جاء الأنبياء فعلمونا غاية الحياة وحقيقة الموت، فعرفنا أن مجيئنا إلى الدنيا لغاية وأن فراقها لحكمة وأن الموت ليس فناء ولا عدما. وإذا كنا نرى التبليغ واجبا علينا، فقد كان الأنبياء وعلى رأسهم سيد الأنبياء ﷺ يرونه غاية حياتهم وحكمة وجودهم، فالتبليغ ماء الحياة بالنسبة لهم.

المؤلف:
محمد فتح الله كولن

المترجم:
أورخان محمد علي

دار النيل
للطباعة والنشر

ISBN 975-315-174-8